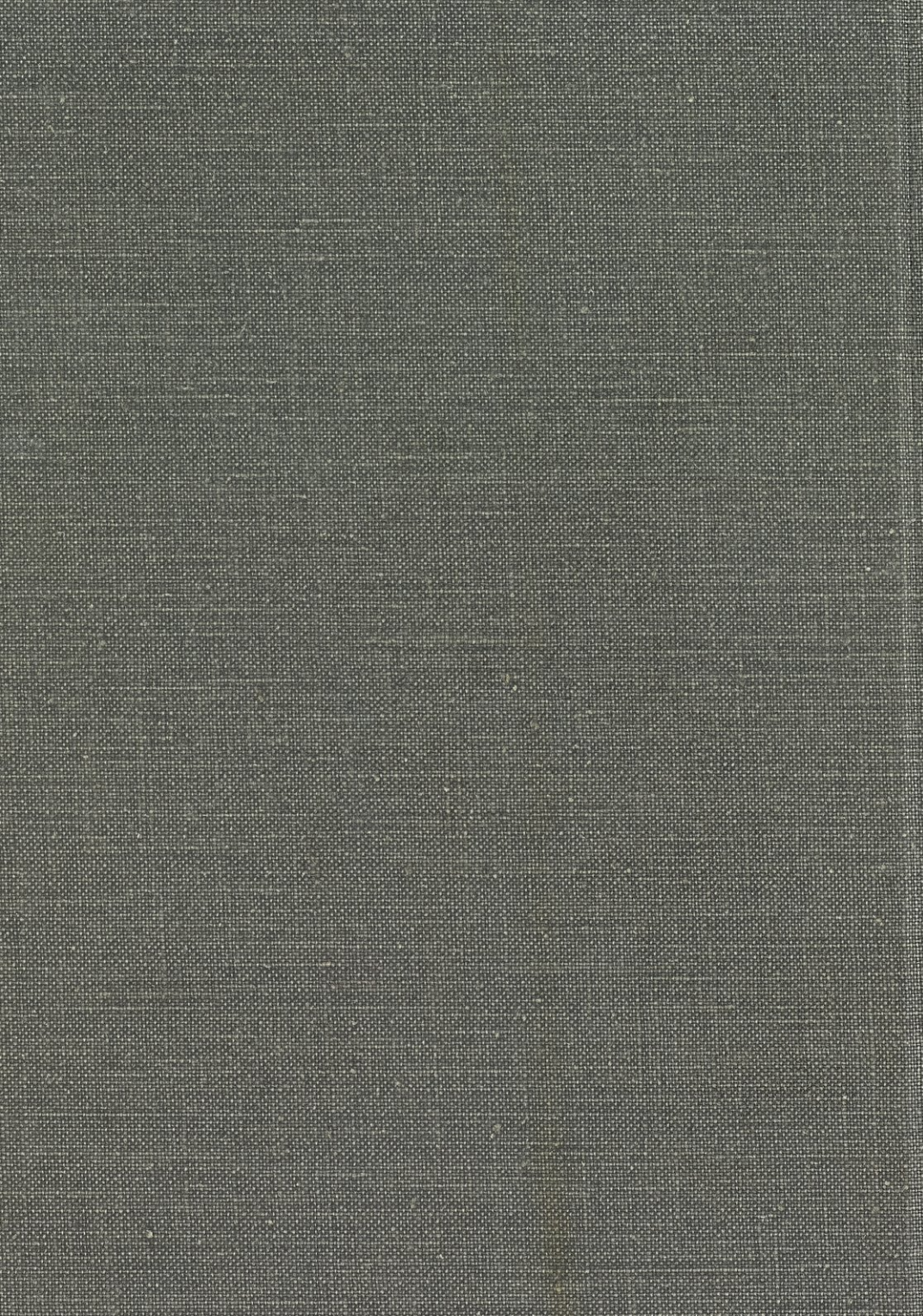




Princeton University Library



32101 054331176

وزارة الثقافة والإعلام القومي - الإقليم السوري

مديرية التأليف والترجمة

تأليف: محمد ديب

ترجمة: سامي الدروبي

مراجعة: بديع الكسم

الشعر

سلسلة الأدب الجزائري

٣

وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم السوري

النسول

محمد دیر

بديع الكسم

ترجمة
امی دروپی

٣ - سلسلة الأدب البنجرائي

(REFCAP)
(Arab)

PQ 3989

D52 M412

1961

الجزء الاول

— ١ —

أطار عمر الستارة التي تسد مدخل الغرفة بقفا يده ، ودخل ، ولكنه ما ان اجتاز العتبة حتى توقف لا يجرؤ على التقدم • وظل جامدا في مكانه تهزه الرعدة ، كان يحس أن مزقا من الليل قطعتها الامطار ما تزال في قرارة عينيه • ان ثيابه المتهدلة عليه تقطر مبللة ، ونعلاه المنقوعتان الرخوتان تطبعان على سدة الباب رسوما واسعة وحلة •

انتقلت نظراته من أمه الى أخته • كانت أخته ترمقانه في عبوس يستمن وجهيهما • وكانت أمه عيني تحتل ركنها المألوف ، وقد تهدل على عينيها منديل عتيق مهترى • انها تبدو غارقة في أحلام عميقة • وكانت الجدران العارية المطلية بالكلس تلتصع تحت أشعة نور الكهرباء •

فلما رآته ، نهضت بوثة واحدة ، وأخذت تهز قبضة يدها قائلة :

— ما ابني هذا بابن ، بل كلب من كلاب الشوارع •
كان واضحا أنها قد قضمت لجامها ، ولبت عمر ينظر اليها وهي تصرخ صراخا ما ينفك في اشتداد :
— نعم ، كلب من كلاب الشوارع ، كلب من كلاب الشوارع •

— ٥ —

ودفعت حوافي منديلها التي تزعجها ، وتابعت تقول :

— أين كنت الى هذه الساعة ؟ أين ؟ أين ؟ قل لي .. هاي هاي .. أأمزق وجهك أم أمزق وجهي ؟ لقد نبت فيك ريش الشر .. أأتظن أنك أصبحت رجلا ؟ أأتظن أن كل شيء قد أصبح مباحا لك ؟ يمينا لن يكون هذا .. ما تزال بي قوى تكفي لتحطيمك .. أنا هنا الأمرة الناهية ، وستظل خافضا رأسك ما احتجت الى البقاء تحت هذا السقف . هل فهمت ؟ اما ان تعود الى البيت في وقت مبكر ، واما أن ترجع الى الشارع .

لم يكن الفتى يلاحظ قطرات الماء التي تسقط من ثيابه وتشكل بركة عند قدميه . كان قلبه يخفق خفقانا سريعا . ترك لأمه أن تفرغ كل مافي صدرها من كلام . ليس هذا كله بجديد . وقالت الام آخر الامر منذرة :

— لسوف تسلم بالاقلاع عن هذه الحياة التي تعيشها .

كان عمر يمضي في كل مساء يجمع بعض نثارة الفحم حول المحطة بين سكك الحديد . هذه هي السبيل الوحيدة الى قليل من الوقود في البيت .

ونضا عنه حقييته دون أن ينبس بكلمة . انه لا يرغب الا في شيء واحد : أن يدفء يديه المتجلدتين .

وتذكر عالم الليل الواسع الذي انبجس منه . كان الليل قد خيم منذ مدة طويلة ، وكان المطر ينهمر ، ينهمر مدرارا .

وعادت الام الى مكانها ، وأمرت ابنتها عيوشة أن تضع
المائدة ، فقامت الفتاة ، فأتت بالمائدة ، ووضعت عليها قدرا
ونصف رغيف من خبز أسود • وأخذ الاربعة يغسسون أصابعهم
في المرق صامتين ، فما هي الا لحظات حتى كانوا قد التهموا
عشاءهم ، وهو فجل مطبوخ بأمعاء ، فتولت الاختان رفع المائدة •
ورقدوا بعد قليل :

لا يستطيع أحد أن يقول منذ متى غرقت الحجرة في الظلام
الدامس • لقد تخدر عمر ولكن النوم لم يجد الى جفنيه سيلا •
لا شك أن وقتا طويلا قد انقضى على هذه الحال • كان البرد
ينفذ في جسمه كالسكين ، فيبقيه نصف يقظان • وفي رأسه كان
يهدر سيل من الصور •

هاهم أولاء مرتلو القرآن يسيرون امام جنازة • كان عمر
يمشي في اثرهم مؤمنا بأن كل خطوة يخطوها وراء حملة النعش
تسر الميت • ان الموتى في هذه الايام كثر • وعمر لا يفوت
من الجنائز الا تلك التي لا يصادفها أثناء جولاته البعيدة •
انه يشعر نحو كل واحد من هؤلاء الموتى بشيء من عطف •

وكان قد حفظ فقرات من نهج البردة ، فهو يتلوها مترحما
على أرواحهم •

وها هم أولاء المتسولون الشاحبون المهزولون يستحثون
الخطى تحت المطر المنهمر • وهذه صور أخرى تجتاز ذهنه أيضا •

لقد قالت له عيني منذ اكثر من سنة : « تعلم مهنة من المهن ،
فلن تجديك كتبك نفعا » • كان ذلك في نهاية الصيف الذي سبق
الصيف الماضي • كانت عطلة الصيف قد انتهت ، فأذعن الفتى
لرأي أمه ، ولم تدس قدماء المدرسة منذ ذلك الحين • لقد طالما
رددت أمه على مسامعه أنه أصبح في الثالثة عشرة من عمره ، وأن
كل ساعة من تعطل فهي وقت ضائع • وكانت تضيف الى ذلك
قولها : « لقد صبرت كثيرا » •

ومن كثرة ما سخنت أذناه من اللوم والتقريع ، بدأ يعمل
صيبا في دكان أحد البقالين ، ولكن السلطات لم تلبث أن أغلقت
الدكان ، وزجت بصاحبها في السجن •

لقد صاحت يومئذ عيني تقول : « يعاقبون صغار المتلاعبين ،
ويتركون كبارهم » •

وكان لا بد من البحث عن عمل آخر للفتى • ولكن سنة
برمتها قد انقضت دون ان يعلق بالصنارة شيء • ليس عمر الآن
الا صيبا معترا ، يتسكع في الشوارع ، لا يلجمه لجام ، ولا يبالي
الوقت ، ولا يكثرث للجو ، ولا يحفل بتقريع أمه

أصغى عمر الى الاهتزاز الذي يزعزع البيت • الليل يهدر
هديرا قويا • والمطر ما يزال يهطل • ووراء هذه المهمة يقصف
الرعد ، فكلما شق السماء مرة ، تزلزل البيت ، فترأى للمرء أنه
متداع متى قصف الرعد مرة أخرى •

أحس عمر فجأة أن هناك شيئا يتربص في الظلمات • شعر من

ذلك بقلق • وذكره هذا بأمه التي تشم الشقاء في كل شيء ،
وتكتشفه بحديثها الممزق في كل شيء •

قال لنفسه : « ما بال أمي التي ترى العالم مشحونا ينذر
السوء ودواعي التطير (اذ تؤول كلمة عارضة ، او حكمة في الاذن
أو رائحة خفيفة في الجو ، على ما يشاء لها الهامها) ما بال أمي
لا تتبه الا الى علائم الشر وما يمثل الكوارث ؟ » •

فما كاد يكمل تمتمة هذه الكلمات حتى انتصبت أمه واقفة
قربه • قال يتوسل اليها قلعا : « أرجوك يا أماه » • واستيقظ
يا للحنان الذي ظهر في قوله : أرجوك يا أماه • ما كان لعمر أن
يصدق أن من الممكن أن يظهر في كلامه هذا الحنان • كانت
الكلمة تهتز في نفسه بقوة تهوله •

أصبح الآن لا يأمل أن يعاوده النوم • وكان قد ارتفع صوت
آخر في ظلام الليل يقول :

« لا تخافي يا أماه ، أضرع اليك • • أنا أعرف أن هذا
الخوف يطوف طائفه في النفس أحيانا • أنت تسمينه القدر •
ولقد طاف بنفسك منذ لحظة على كل حال • شعرت به من الحزن
الذي استولى عليك • ابتهل اليك يا أماه أن تعرفي أن هذه
القوة لا وجود لها ، وأن الحياة ليست جحودا • لا تكفري بما
في نفسي باسم ما تحمليه من عاطفة الامومة » •

هل التوسل هو الذي يمكن أن يلين ارادة عيني ؟ لم يستطع
عمر ان يمتنع عن ترديد هذا التساؤل على نفسه • وكانت حدود

الغرفة تتراجع أمام عينيه ، بينما أشتات أفكار أخرى تطير من رأسه عصفير مبعثرة ، تهوّم الى غير نهاية ، خفيفة خفيفة ، ليس لريشها وزن وكانت العصفير تمحى بدورها ، وتجري على جسمه ظلالة متهربة . . .

لقد أخذته سنة من نوم . وكان دوي العاصفة يفنى في فضاء الليل . كان المطر يهدر بغير انقطاع ، وكانت رياح شديدة بعيدة تهز أركان المدينة . وفجأة خيل اليه أنه يسمع انتفض قلبه . لا شيء . لقد انقطع المطر . وخيم على دار سيطار هدوء لا تعكره نسمة . ان الهواء يحمل برودة رطبة ، شعر الصبي بأنفاسها تتسلل الى الحجرة من تحت الباب . عاد الى الصبي وعيه ، فتذكر أن عيني وبنيتها يرقدن جنبا الى جنب قربيه ، فوق فرش القش الممدودة على الارض . كان عمر ، الراقد على مقربة من أمه ، يتلقى منها بعض حرارة . رد اليه هذا شيئا من الثقة . ونام من جديد .



كان بخار متموج قد انبجس من الارض ، فسرعان ما سد جميع الطرق • سكنت الريح وانقطع المطر •

لقد اختضن الضباب المدينة طوال الليل ، حتى اذا طلع النهار في غد ، كانت شمس فتية تسطع في سماء كانون الثاني • انها تلعلع الشوارع • العربات تجري على الارض صاخبة • وأغان تتبع من حوانيت الخشب • ان كل شيء يبدو منغما ، حتى النداء الابح الذي يخرج من صدور الباعة المتجولين •

ما من شيء كان يدع للمرء أن يتنبأ بعذوبة كهذه العذوبة الفجة • لقد نبت هذا الانتعاش الفرح في عالم أسود • ترى هل عزم الشتاء على أن يهجر سرباله الثقيل ؟ هذا هو الشتاء الثالث بعد اعلان الحرب • ان الامل في أيام أفضل وأعدل قد هدهد أهل تلمسان •

وفي هذه الاثناء انما أصبح الناس يلتقون بأولئك الاشخاص الذين يشبهون أن يكونوا اشباحا مخيفة • ان هذا الجمهور من الرجال والنساء والشيوخ والاطفال يجتاح جميع الاحياء شيئاً بعد شيء • ان اكثرهم من اصحاء الابدان الذين ليس بهم آفة • وكان هؤلاء البؤساء التائهون لا يحسون نظرات السوء التي تمتلئ بها أعين السكان عند مرآهم • كان جوابهم على

المعاملة الخشنة التي يستقبلهم بها الناس ، ويلاحقهم بها رجال الشرطة ، هو أن لا يحفلوا ولا يبالوا • ان قوة يجهل المرء شدتها تدفعهم الى امام •

كذلك انتشروا هذا الانتشار المحروم من الحياة حرمانا غريبا ، انتشروا في تردد ، وفي عياء وكلال •

تساءل الناس : أليسوا يتدفقون منذ مدة من الوقت ؟ ان الشوارع الكبرى والطرق العريضة والميادين تفيض بهم • لاشك في أنهم تسربوا الى المدينة بفضل الايام الماطرة الماضية !

لم يعرف أحد في ذلك الوقت ما الذي كان يجذبهم الى المدينة ! • أتراهم جاءوا يلتمسون ما قد يسد رمقهم ؟ • • • ولكنهم اذا فرضنا أنهم وجدوه ، لا يغيبون ولا يعودون الى الكهوف التي لفظتهم • انهم يلتصقون بقلب المدينة • لذلك كان الناس لا يفهمون من الامر شيئا • أكان يحدوهم نوع من حب الاطلاع ؟ لا • • • ذلك أنهم كانوا ، حين يغدون ، لا يزيدون على أن يستقروا حيث يتراءى لهم ، ثم ينظرون الى كل شيء بعيون منقطة •

على أن هؤلاء المتسولين كانوا أناسا رفاقا لا يسيئون الى أحد • يجب أن نعترف بأنهم لا يحدثون شيئا من أذى • انهم ينظرون الى الكبار والصغار الذين يمرون بهم ، في هدوء بغير اكتراث • انهم ينتظرون • ولكن ماذا ينتظرون ؟ لا يعلم أحد ذلك • ثم يستأنفون طوافهم في الارض على غير هدى • وينامون في المكان الذي يفاجئهم فيه هبوط الليل • فاذا هبت ريح شديدة

شدوا أسماهم الرثة على أجسامهم ، ووضعوا جماجمهم على
حجرة أو درجة ، وناموا •

أصبح الناس يلتقون بجموع متزايدة منهم ، في الطرق
المسدودة ، وتحت الافاريز ، وحول المتاريس ، وأمام الحمامات
العامة ، وعلى سلاالم السوق المسقوفة ، وعند أسوار « مشوار »
التركية ، وقدام أروقة الخانات • كانت شخوصهم المتفككة ،
السمرء ، الوسخة ، تتسكع في جميع الشوارع • انهم يجرون
أنفسهم في كل مكان • وكان بعضهم يحمل على الظهر بعضاً
آخر أصبح عاجزا عن مواصلة السير • حتى اذا قطعوا بهم بضع
خطوات جلسوا على الارصفة لاهئين • كانت المخازن لا تضم
في واجهاتها الا أشياء لافائدة لهم منها • ومع ذلك ، فهناك
انما كانوا يستقرون وينطفئون انطفاء الشعل الشاحبة •

وكان يحس المرء من حين الى حين أنهم يبحثون عن شيء •
ان حركاتهم اشبه بحركات زحف لا يدرك • ثم لا يلبثون ان يعودوا
الى سكوتهم • انهم لا يمدون جميعاً أيديهم • وما لم يتعرض لهم
أحد من سكان المدينة بسوء ، فيضطروهم الى الترحيح ، فانهم
يظلون قابعين في مكانهم ، متجمعين على أنفسهم ، يرمقون
بأبصارهم جموع الناس وهم يتنقلون •

وكان بعضهم يظل نائماً بغير انقطاع ، متلفاً كالكنفذ ، فاذا
أراد أحد أن يحسن اليه كان لابد له أن يميل عليه ليدس له
القرش في راحة يده • ان هؤلاء المتسولين الجدد لا يسمع أحد

أصواتهم • من هذه الناحية ، طراً اذن شيء من تبدل •

أتراهم كانوا يجيئون من الضواحي المحرومة الفقيرة ؟

ربما ربما كانوا يجمعون بضعة درهيمات ، أو بعض قشامات الطعام ، من مجرد ارتياد المدينة • ولكن لماذا كانوا لا يعودون بعد ذلك ؟ ما بالهم يتشبثون بالمدينة كأنهم ملتصقون بهذه المباني التصاقاً لا فكاك منه ؟

وسرعان ما أصبح أي حاجز من الحواجز عاجزاً عن صد هذه الاندفاع القوية التي تقود هؤلاء القوم الى أكثر الاحياء حشمة ، والى الشوارع التجارية ، والاجزاء الراقية من المدينة • وما يزال الناس لا يدركون ما الذي يجنيه هؤلاء الرجل من التردد الى هذه الاماكن • انهم لم يخلقوا لها ، ولا يمكن أن تناسبهم • أتراهم كانوا يدركون ذلك على أقل تقدير ؟

المدينة غارقة في نور ساطع ، وكأن الطبيعة تنوي أن تطيل هذه الهدنة المضيئة • كان البرد قارساً ، ولكن الشمس تتلأأ •

والاسر التي يتعاطى جميع أفرادها مهنة الحياكة كانت في هذا العهد ، ربما أكثر من أي عهد مضى ، لا يحصى عددها : الرجال معلقون وراء أنوالهم العتيقة ، والنساء تندف الصوف أو تغزله • وكانت عيني نفسها تحصل من حين الى حين على جزر ملطخة بالدهن مثقلة بالتراب والوشل والبعر ، فتتنظفها وتهيئها ، وتحمل الى سوق الغزل ، بعد عدد من الايام يقل أو يكثر تبعاً لما تطيقه قواها ، رطلاً أو رطلين من الخيوط الناعمة اللينة اللون •

على أن المشهد المشجع المنعش انما كان مشهد المعامل • ان هذه
المعامل كانت منذ زمن غير بعيد تعمل في ثاقل • من ذا الذي
لا يتذكر ؟ تشهد على ذلك تلك الاسحار التي كانت فيها عيني
تقف في سوق الغزل مع كثيرات غيرها ، وهي تنتظر في ملل ،
عسى أن تجد زبونا يشتري منها غزلها • ولكن ما ان أخذت
صفارات الانذار تولول ، حتى ألت بالمعامل حمى مسعورة •
فما من حي ، وما من مكان ، بل مامن ضاحية الا واهتزت بنشاط
الحائكين ، فحيثما تذهب يستقبلك اصطفاق أمشاط ، او اصطخاب
مكايك • الانوال تلتهم الغزل وتسال هل من مزيد ، فلا شيء
يشبع جوعها الشديد المجنون الى هذا العلف الوافر : الصوف •

ان المدينة القديمة التي كانت مدينة أصحاب حرف ، تضج
الآن بغفوها العتيق وتستحيل الى ما يشبه مدينة صناعية • ومنذ
انطلق هذا اللهب ، عدل الحائكون من تلقاء أنفسهم عن تعسفهم
القديم ، فهم الآن ينتزعون من أيدي البائعات أي صوف مهما
يكن شأنه •

وتكاثرت المناسج والمعامل تكاثرا مبالغتا ، بينما كانت تسافر
الى فرنسا بغير توقف سجاجيد وأعطية •

كان الالمان يأخذون في نهاية الامر جميع هذه الانسجة ،
يشترونها بالوزن ولا يعينهم النوع • وروى بعضهم أن كل قطعة
من هذه القطع كانت متى وصلت اليهم تمزق وتسحق وتحول
الى مادة خام •

ما يزال الجيش اللجب المتحرك من الجياع يزدهم في الشوارع والازقة بغير انقطاع • لكأنه يشق الارض ويخرج من أعماق مجهولة • غمار من الناس مخجل ، يتقل في الهواء الطلق ، عارضا أعضائه المنهوكه ، وقروحه القائحة ، وأعينه المحتقنة بالتراخوما • ان رمادا باردا قد نثر على هذه المخلوقات التي لا هوية لها • وهم يتسكعون قليلا هنا ، وقليلا هناك ، ولكنهم لا يمضون قط الى أمكنة بعيدة • وليس يحفل بعضهم ببعض ، فهم لا يجتمعون ، الا اذا وزع طعام أو وزعت قروش ، فانهم يشكلون عندئذ حلقة ما تنفك تضخم • حتى اذا طردهم أحد في مثل هذه اللحظة تفرقوا طائعين •

وساء الجو بعد بضعة ايام ، فاذا السماء تتبدل تبديلا كاملا على حين فجأة فتصبح قاتمة ثقيلة ، وتنعقد فيها سحب كثيفة ، ثم تنشق السحب عن أمطار غزيرة ، تهطل على الارض حائقة ، وتظل الامطار تنهمر كأنها أنهار تتدفق • وعادت كآبة المياه المضطربة تخذل المدينة •

ظل المتسولون يضربون في الارض على غير غاية ، وكأنهم لا يلاحظون هذا الطوفان الذي يبيلهم • انهم يسرون وقد ماتت

منهم الاحداق ، وراحوا يمدون أيديهم بحركة غريزية • انهم
ينبعون من بين المطر المتساقط كامدين مبشرين ، ثم مايلبثون أن
يعودوا اليه • لكأن العدم الرطب كان يتقيؤهم •
ألف السكان منظر هذه الاطياف الآن •

— اذا لم تجئنا الامطار في هذا العام بأي خير من خيراتها
المعتادة كما يجب أن تتوقع ذلك ، فانها على الاقل ستدفع الى
شوارعنا هذه الانواع من البشر ، الخلقة البالية ، الدكناء كأنها
وحوش الغاب •

بهذا الكلام كان يتندر بعض المازحين •
وكان هؤلاء أنفسهم يقولون بصدد هذه المخلوقات البائسة :
— ليس في الامر خطورة ••• ماهؤلاء الا منا •• أنظروا
اليهم • انهم مرآة تنعكس فيها صورتنا نحن ، انهم أصدق صورة
لما نحن عليه • أنظروا اليهم تروا هذه الصورة •

وظل الجو السيئ مقيما في المدينة لا يبارحها • ان من الصعب
على المرء أن يعبر عما يترك هذا الجو السيئ في النفس من أثر •
لقد أصبحت أيام الصحو الاخيرة ذكرى دارسة • وكان الناس
حين يرون أعاصير الماء التي تهدد بابتلاع الكون يدمدمون
قائلين : « حمانا الله من الكارثة • لقد انفتحت أقية السماء » •
ان الفيضانات تذهب بعدد من الضحايا في كل عام تقريبا •
وبعض المساكن ينهار أحيانا • والناس يضيفون الى ذلك قولهم :
« سبحان اسمه » •

ان أبخرة كثيفة تغشى المدينة في بعض الساعات من بعد

الظهر ، وتبلغ من كثافتها أن المدينة تغيب فيها ، فما يستطيع أحد أن يميز شيئاً • ومع ذلك كان الاغصار يزول في بعض اللحظات ، وكان الهواء يسكن شيئاً بعد شيء ، ويظل المطر يهطل ، لكنه يهيم عندئذ رذاذاً دقيقاً ، بغشة خفيفة تشبه أن تكون دخاناً ••

وتعود المباني الى الظهور ، مبتلة حتى الحجارة • وتسفر الاشجار عن قاماتها السوداء الشعثاء في جو مكبرت بارد الاشعة أدهمها • وتتمزق سحب رطبة على رؤوس المآذن ، وتشرح في أشجار الدلب القديمة ، ثم تتبعثر اربا كبيرة ترقى الى السماء ، فتشد منها هنالك رياح تهب على حين فجأة • وولى الصحو بعد ذلك •

في ذلك اليوم عدل عمر عن الذهاب الى سكك الحديد ينبش حجارتها • انه يحتمي الآن ببعض الاروقة أو بعض الشرفات ، ويثب فوق برك الماء ، راكضاً الى البيت ليتجفف لقد هبط الليل • ان القلة القليلة من الناس الذين ما يزالون يصادفون في الشوارع يسرون بخطى خشيئة •

وفجأة أخذت الامطار تدك الفضاء في عناد أقوى ، وهذه هي المدينة ، المظلمة الملتمة ، المختقة بين جدران أسوارها ، التي تتعرج أزقتها الى غير نهاية ، وتتكدس بيوتها المتشابهة متسندا بعضها على بعض ، ويشبه كل حي من أحيائها أن يكون كتلة من وحل ، هذه هي المدينة تنتصب الآن وقد لاح منظرها أشد ما يكون عداوة ونكرا : جدراناً جهمة غفلا ، شوارع وأبراجاً وأسقفاً مغسولة •

حين أجبرت عيني ابنها على أن يخرج معها، كانت المدينة ماتزال غارقة في حلم من ماء وضجر • وقد النقيا أثناء الطريق بمتسولين ينتقلون جماعات جماعات ، ويفورون كالاشباح في الشوارع الغارقة في البخار ، فيبدون بعيدين بعيدين •••

ولكن سرعان ماظهرت كتلة « ميدان البليق » • هذه أكاليل من سلال القصب معلقة بسقوف خصاص الخشب القابعة في وسط الميدان على صورة مربع ، حزام من ققف تختفي وراءها ققف ، وسحاحير خضر ودكاكين شواء ، كقلب أخضر قاتم تنشق فيه حوانيت الجزارين جروحا بلون البنفسج • ان رائحة قوية من روائح الغياض تملأ الجو • والامطار منهمة في اذابة الالوان الخضراء والشهباء عن الاشجار ومناضد الجزارين والناس والمباني • والميدان والشوارع المجاورة ورشة بحركة الناس والعربات ذاهبة آية • والجمالون السغب يجولون هنا وهناك في خرق رثة • والفلاحون الخشان تفوح منهم رائحة الارض وهم يسيرون • وهؤلاء نسوة يمررن بالمكان متدثرات بحجب بيض • ان الضوضاء مخنوقة ، وأصوات الناس تخرج من صدورهم مبتلة ، والشحاذون ينادون نداءات مصرة بغير أمل : « حسنة يا اخوان ، صدقة ، حسنة » •

ان هؤلاء الشحاذين لا شأن لهم بأولئك الذين وفدوا الى
المدينة في المرة الاخيرة • انهم لا يشيرون قلق احد من الناس •
— « حسنة لله ، حسنة على ارواح موتاكم ، صدقة يا أهل
الخير » •

وأمام خص من خصاص الخشب تجلس فيه على عروشها قدور
ثجلاء ، أبطأ عمر خطاه يتمصص الروائح المبتلة التي تخرج من
القدور • ولكن صوت عيني ما لبث أن استحثه من بعيد كأنه
مهماز • وسارا في دروب المدينة الواطئة •

ان البيوت في هذه الاحياء القديمة لا يصطف بعضها الى
جانب بعض ، بل هي تتصادم في فوضى كبيرة وسط الطريق
المرصوف • وهذا جدول أسود يتلوى بين الابنية الهرمة المتآكلة •
سارت عيني وابنها أولا في شارع صغير سريع الانحدار متعرج ،
أفضى بهما الى « باب زير » ، ومن هناك دخلا في شارع صغير
آخر رمى بهما الى زقاق مسدود • كانت المدينة قد أقفرت مرة أخرى
تحت وابل المطر •

وقفت عيني أخيرا أمام بيت عتيق ، مهيب المظهر ، رغم
تخربه ، ورفعت دقاقتة البرونزية ، فقرعت الباب ثلاث مرات •
كان الباب المصنح بالحديد مفتوحا ، ودوت الضربات في الفراغ •
احتمت عيني مع ابنها بالمدخل المغطى بمربعات قديمة من الخزف •
ما من جواب • لا صوت الا صوت تساقط المطر على بلاط
فناء البيت •

قرعت عيني الباب مرة أخرى ، ونادت :

— يا آمنة •

لقد حرصت عيني على أن لا يكون صوتها قويا • المطر يتساقط على بلاط الفناء في قرقرة متساوية • لكن البيت خال من السكان • قوّت عيني ضرباتها وصوت ندائها : طاق ، طاق ، طاق •

— يا آمنة •

فظهرت في هذه المرة امرأة طويلة يابسة لها رأس كراّس الماعز ، فقالت لهما رأسا في ايجاز وخشونة ، دون كلمة ترحيب : — انه هنا •

فزفرت عيني تقول وقد أشرق وجهها :

— ها •••

دخلت الام وابنها وراء المرأة ، فقادتهما الى غرفة مظلمة كان يجلس فيها شخص منتفخ على فراش ، طاويا ساقيه • ان الغرفة الواسعة غارقة في جو من الحشايا • وفي الظل تلتمع أوان من النحاس التماعا غامضا • اخذت عيني تضرع الى الرجل وتبتهل دون مقدمات ، فكان يصغي اليها من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يطرف له جفن • وكانت امرأته التي من عظام تراقبهما بعين حادة •

لم تصل عيني الى الكلام عن الغرض الذي جاءت من أجله الا بعد ربع ساعة من الزمان ، فلما عرضت على المحسن ماحي بوعنان انها تلتمس لابنها عملا تنهدت تقول : « هذا اليتيم » ،

وهي تمسك بكم عمر الذي ظل واقفا خلفها ، وفي الوقت نفسه
ارتعش أنفها واحمر ، وأوشكت ان تنفجر باكية • فدمدم الرجل
يقول :

— أرسليه الى معلمي •

هذا هو الكلام الوحيد الذي سقط من شفثيه • فخرت عيني
راكعة أمامه تشكره •

وفي هذه اللحظة انفجر في الغرفة بكاء طفل صغير • فأسرعت
ربة البيت الى الركن الذي كانت تطلق منه الصيحات • واشتبك
صوت الأم بصوت الرضيع • أخذت المرأة تصب على الطفل
الصراخ سيلا من السب واللعن في تدفق عارم :

— يامنحوس ، يا ملعون ، حمى تأخذك •• ألا تستطيع أن
تهذا لحظة ؟ • الله يجرمني منك ••

وظل الطرح النزق يعول بكل ما أوتيت حنجرته من قوة ،
غير مبال شتائم أمه •

كان عويله ما يزال يسمع حين خرج عمر وأمه من هذا
المسكن مسرعين ، وصارا في الشارع • لقد أدركا بتلك السرعة
المعهودة في الفقراء ، أن غضب هذه المرأة السليطة انما كان موجها
اليهما لا الى الطفل •



قال واحد في الظل متدمرا :

— ماذا تريد ؟

فأدرك عمر من الصغير الذي صحب هذه الكلمات أن الرجل الذي نطق بها غير ذي أسنان ♦

هبط عمر الدرجات الأخيرة من السلم الذي وقف عليه ، فصار في الكهف ♦ ان رطوبة كرطوبة مناخر الحيوانات تلتصق بوجهه ♦ أحس الصبي باختناق ♦ انه لا يرى شيئا ♦ تحسّر على الشارع : ألا ان الامطار التي تهطل كالانهار خير من هذا الجو الخانق ♦ تردد ♦ واستبدت به رغبة جامحة في صعود السلم والفرار من هذا المكان ♦

كرر الصوت يقول :

— ما الذي جاء بك ، هه ؟ قل ♦♦

أجاب عمر :

— أرسلني صاحب العمل ♦

وطافت في خياله صورة المرأة الطويلة ذات الرأس الذي

يشبه رأس ماعز ، وصورة الشخص المتنفخ • وتخيل أمه عيني وهي
تخر راحة أمام ذلك الرجل ، وتخيل نفسه وهو يستحثها على
القيام والخروج بعنيف القول ، فتهض ولكنها لا تستطيع
الذهاب ، وتظل تردد :

— أنت المحسن إلينا ، أنت رب نعمتنا • جزاك الله عنا خيرا
في الدنيا والآخرة •••

ولما ألفت عينا عمر هذا النور الخافت الذي يضيء الكهف ،
رأى الحائكين الذين كانوا ينظرون إليه نظرة عداوة • ان قسمات
وجوههم جميعا زاوية شاحبة •

لم يعرف ماذا يفعل •

— صاحب المعمل هو الذي أرسلني لأعمل مكيبا •
فنظر إليه الشخص الذي كلمه في أول الامر نظرة فاحصة ،
وقد ظهرت على وجهه أمارات التقزز :

— ما عمرك ؟

— خمس عشرة سنة •

زاد عمر عمره سنةً من قبيل الحيلة •

— طيب ••• تستطيع أن تبقى • واليك الشروط : في آخر
الاسبوع تتقاضى من كل حائك ما يقدّر أنك تستحق أن تتقاضاه •
قال الرجل ذلك بلهجة متعبة غير مغرية • فخفض الفتى رأسه •

قال الرجل :

— موافق ؟

ثم طاف ببصره على المعمل باحثا ، وقال :

— يا زيش ، انه يستطيع أن يبدأ ♦

فخرج من الظلام وراء عمر عفريت صغير مشوه ، له شعر كأنه
الوبر أشعث ، فشدَّ عمرَ من كتفه قائلا :

— تعال ♦

فتبعه عمر ، وابتعد الاثنان الى القاع الرطب اللشق من الكهف ♦

— ما اسمك ؟

كانا قد وصلا الى كومة ضخمة من الاكياس والعجلات وقطع
الانوال والخيوط والعُدد والاشياء الاخرى التي يصعب على
المرء ان يعرف أوجه استعمالها ♦

— عمر ، وأنت ؟

— أنا الذي أسألك ، وليس لك أن تتلقي أسئلة ♦ اسمي
حامي أما زيش فهو اللقب الذي ألقب به ♦ واعلم انني هنا
رئيس الصبية فعليك أن تفعل كل ما أمرك به ♦♦♦

فنظر اليه عمر يلاحظه متحيرا ، وأضاف زيش يقول وهو
يتهمز على ساقيه العوجاوين :

— هل فهمت يا مغفل ؟

وكان الحائكون يتابعون كلام الصبيين دون أن ينقطعوا عن
العمل ♦

فقبض عمر كفه ، ودمدم يقول متوعدا بصوت خافت :

— اياك ••• حذار •••

فنظر اليه زبيش يتفرس فيه دهشا ، وتمتم يقول :

— أأنت من أهل المشاكل ؟

ثم لم يلبث أن صاح يقول بلهجة المجاملة :

— اسمع يا عصا ••• هلم تتصالح ، هل تريد ؟ أنت ترنحت
لأنتي رميتك بسهامي ، فاعلم أن الامور ستظل تجري على هذا
المنوال ما بقيت هنا ••• انك لم تر شيئا بعد • انتظر قليلا ،
وليُسلخن جلدك سلخا ••• موافق ؟

ومد يده الى عمر ، فتناولها هذا ، وتابع الصبي يقول :

— ليس يجديك انك كبير • لسوف ترى هذا بأمر عينك •
أنت جديد ، وعلى الجديد أن يطيع القدامى • عليك أن تطيع ،
هذه نصيحتي اليك • الطاعة خير لك •

دمدم عمر يقول من بين أسنانه انه موافق ، فدهش زبيش من
هذا الاذعان الذي لم يتوقعه •

— حسن ••• أنت فتى طيب ••• هيا كبب شلل الغزل التي
تراها هناك •

قال زبيش ذلك وهو يشير بيده الى شلل من الصوف المغزول
نضدت تحت درج • كان عمر يعرف ماهو العمل في معمل

نسيج • فغرز مكبا على مداره الحديدي ، ووضع عليه شلة من صوف ثخين مبروم برما متفاوتا ، وأخذ يعمل شادا رأس الخيط •
 انه يعمل منذ برهة ، تحقيق به جلبة مغزل • واصطفاق الامشاط يوشق بعضه في بعض بين قرعات المكاكيك • ان عمر يصغي الى هذه الضوضاء •••• ويصغي الى الضجة الناعمة المخشخشة التي يحدثها مكبه • أمس كان حرا • أمس كان يجري في الشوارع طليقا بغير لجام • وهذه حياته الآن تقطع قطعاً بما يشبه الساطور •
 شعر عمر بحزن مفاجئ يأخذ بمجامع نفسه •

* * *

الظهر • لم يمض أحد • وعمر لايجرؤ أن يمضي أيضا •
 فعل ما فعله غيره • لم يترك الكهف • صبر • رأيهم يخرجون طعاما • وممر قربه رجلا عملاق تزين وجهه لحية كالفتح سوادا ، فسأله بصوت عريض :

— ألم تجيء بطعام ؟

فلما أجابه الصبي بحركة من رأسه أنه لم يجيء بطعام ، قطب الحائك حاجبيه ، ومضى الى نوله ثم عاد يحمل قطعة من خبز الشعير وقليلًا من الزيتون الجاف وضعهما بين يديه •

شخص عمر اليه بعينين دهشتين • فتأمله الرجل العملاق صامتا • انه ليس ممن يكثرون الكلام • ومضى يلحق بجماعة

العمال الذين كانوا يتناولون طعامهم عند قاعدة الدرج ، دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة •

وبينما كان عمر يمضغ خبزه ، وصل زيش ، وعاد يصدر أوامره :

— حاول أن لاتنسى في المساء ، قبل اغلاق الدكان ، أن عليك أن ترتب الاشياء المبعثرة ، وأن تكنس الارض ، وأن تحمل الاغطية الى المستودع بعد ذلك •
—وأنت ؟

— أنا ؟ سأفعل مثلك يا أبله •• ولكنني هنا أقدم منك ، فعليك أن تتبع نصائحي • ستجري الامور على خير حال اذا أنت قررت أن تطيعني ••

قال زيش ذلك ، وغمز الصبي الجديد • كان يبدو مسرورا بشيء لم يستطع عمر أن يعرف ما هو • كانت حدقتاه المحققتان تلمعان رغم الغشاوة التي تحجبهما • وظل يثرثر بصوت شرس ، ثم غنى ألحانا لا رأس لها ولا ذنب •

وفجأة أخذ يحكي قصة عن أبيه • قال ان أباه الذي مات منذ ثلاث سنين كان حدادا • وفي ذات يوم بلل احدى بناته بزيت الكاز ، وهي في السنة الاولى من عمرها ، ثم أحرقها حية • كان لا يعمل ، وكان يعود الى البيت في كل يوم وهو في سكر شديد • وكانت الام لاتدري ماذا تصنع من أجل أن تجيئهم بطعام • كانت تمضي تتسول متلفعة بحجابها ••

وما كاد الصبي يفرغ من حكاية هذه القصة حتى شرع في حكاية قصص أخرى • فلم يبق في ذهن عمر من هذا السيل من الكلام الذي سمعه الا أن هناك عصابات من اللصوص لا يستطيع أحد أن يقبض عليهم ، حتى ولا ذلك الجيش من رجال الدرك الذي يطاردهم •• ففي اللحظة التي يظن أنهم على وشك أن يقبض عليهم ، يتحدث الناس عنهم في الطرف الآخر من البلاد • وحين يعتقد أخيرا أن القبض عليهم أصبح أمرا أكيدا ، يختفون بما يشبه السحر ، فما يعثر لهم على اثر • وخفض زيش صوته ليقول ان الفلاحين يساعدونهم لان هذه العصابات من اللصوص تعاقب أغنياء المستوطنين الفرنسيين وتفرض عليهم الاتاوات •

كان الصبي يعرف قصصا كثيرة مرعبة ، عن السحرة ، والقتلى والارواح ، والغيلان ••• ان اعتلال صحته ، وذبول جسمه قبل الاوان لم يخفضا نشاطه ، بل انهما ليوقدان في عروقه نارا •

وكان بو زيد ، وهو صبي آخر ، قد قرفص قربهما ، وأخذ يصغي الى الحديث محملا •

وفي هذه اللحظة صاح شول يأمر :

— الى العمل يا أولاد !

ان شول هو ذلك الرجل الذي ليس له أسنان • انه بجسمه المعروق ووجهه الاغبر وشعره القصير ، أشبه بمقشة عتيقة متنتقة • أخذ يدنو بخطى متبخررة ، وهو يضحك ضحكة تكشف عن لثتيه البنفسجيتين ، وعيناه جافتان جارفتان كعيني باز ••• حتى اذا

أوشك أن يحاذي زيش ، انبطح الغفريت الصغير على الارض •
ان هذه الحركة تجنب الصبي لطمات اليد العريضة الصلبة ، يد
هذا الحائك • كان شول يتصرف تصرف من هو صاحب المعمل •
أترأه كان يستمد هذه السلطة من رب العمل ؟ لاشك في أن الامر
كذلك ، فقد كان العمال يخضعون لاوامره • كرهه عمر •

— هيا ••• بسرعة ••• الى العمل !

واشتد الظلام فجأة في الكهف ، حتى ليعجز المرء أن يجد
طريقه فيه الا تلمسا • وانتشر برد قارس كالثلج • لاشك أن
السماء قد غشيتها السحب • جلس عمر أمام مكبه • ونهض
زيش بسرعة منذ تجاوزه شول ، وأخذ يصيح صيحات طويلة :
« هوه ، هوه » واشتعل المصباحان اللذان كانا معلقين في القبة
يغطيها الغبار •

نظر عمر الى مكبه وهو يدور • هؤلاء الناس ، هذا الرجل
الذي اسمه شول •• نظر عمر اليهم متفرسا •• انهم أشبه ببوم
اختار مسكنه في ظلمات هذا الكهف •



لم يأت المعلم ماحي بو عنان الا في نحو الساعة الرابعة • هوذا يصل الآن متلففا بقباء أحمر من وبر الجمل ، وقد انتفخ القباء بالماء وتصلب • ان كل حديث قد انقطع من قبل أن يصل الى آخر الدرج ، وتضاعف نشاط الانوال •

فلما صار في وسط المعمل رد عمارة البرنس بحركة من كتفه الى وراء ، وأخذ يهز جسمه ليتساقط عنه الماء • ان قطرات كثيرة تتساقط على الارض فيسمع وقع تساقطها • وكانت الريح تهز زجاج النوافذ •

وتهالك المعلم بعد ذلك على كومة من الاغطية قرب كانون من فخار فيه فحم مشتعل ، ثم مال بجذعه على النار وأخذ يدفع يديه صابرا • ان بقعا حمرا ترسم على قبائه • وان انعكاسات مثلها توقد نارا في عينيه •

قال شول :

— جوّ ابن الكلب !

— هم •••

هكذا زفر ماحي بو عنان وهو يقوس حاجبيه ويرفع أجفانه المتورمة •

وغمس في الرماد الرخو ملعقة معدنية طويلة مثلمة الاطراف ،
فحرك بها النار ، فاذا بالجمرات التي لم يكمل اشتعالها تطلق
وتقذف بشراراتها ، فيسحق منها بوعنان ما وصلت اليه يده ،
ويراقب الاخرى وهي تنطفئ من تلقاء ذاتها ♦

انطلق شول يضحك ضحكة انتهت بغرغرة ♦ وكانت عيناه
المدورتان اللتان ليس لهما أهذاب ترقبان رب العمل ♦ قال :
— تكاد تحرق الورشة ♦

فلم ينظر اليه ماحي بوعنان ، ومال على الكانون بوجهه الثقيل
وشاربيه الاشعثين المتدليين ♦

هتف حمدوش يقول ، وهو شاب أحمر الوجه :

— يا معلم ، اذا استمر هذا الجو ، فأنت الذي ستجمع
الذهب ، فما من جو يروج أعمال الحائكين كهذا الجو ♦♦

وكان ماحي بوعنان يصغي الى هذا الكلام ، فألقى عليه العامل
المتوهج الرأس نظرة شزراء ♦

— سيكون في وسعك أن تدفع لنا المتأخر من حسابنا بعد
الآن ، أليس كذلك ؟♦♦♦ انا ننتظر منذ أسابيع ♦ وما هو بالمال
الكثير ، ولكنك لا تفلته بسهولة ، اعترف بذلك ♦ حذار ثم حذار ،
انه لخير للمرء أن لا يملك ذهباً كثيراً ♦ فكلما ازداد ما يكنزه منه
ازداد حسد الناس له ♦

قال حمدوش ذلك وضحك ضحكة حادة ♦ ان هذا الفتى

الجميل ، وهو أصغر العمال سنا ، يتكلم بصوت عال متقطع ،
يحنق من يخاطبهم • ظل ماحي بوغان صامتا ، متسندا على الاغطية
بعيدا مائة فرسخ عما كان يقوله الآخر •

ورجع هذا عن رأيه فاستدرك يقول :

— أوه •• ماقلت هذا متشكيا ، فالامور باقية على حالها ،
وينبغي للمرء أن يقبلها ، خير للانسان أن •••

فرفع رب العمل رأسه ، وألقى عليه نظرة احتقار • وقبل أن
يستطيع الشاب الاحمر أن يضيف الى مقاله شيئا • كانت عينا ماحي
بوغان قد اختبأتا تحت حاجبيه الكثيفين • وظل حمدوش ساكتا •

فاذا بضحكة ساخرة تغضن خدي شول الداويتين •

— اذا حل الخير أصاب منه الجميع • وانبا ينبغي للانسان أن
يؤدي عمله في أمانة •

— خاصة وأنا ، لن نبدل من الامر شيئا مهما تقتتل !

بهذا اجاب حمدوش وكان التهكم يرعش صوته •

فقال شول مؤمنا على كلامه :

— ها ••• نعم ••• نعم •••

فاذا بالشاب يصرخ ملء حلقه •

— لا ••

ففرح عمر حين سمع هذا الجواب • ان شول لا يخيف اذن
جميع العمال • وحملق شول •

وأردف حمدوش يقول بصوت بارز النبرة :

— لقد نشأت وترعرعت في حرفة النسيج هذه • بدأت العمل
فيها ولم أتجاوز الخامسة من عمري • كان أبي هو صاحب
المعمل •

فلما بلغت الخامسة عشرة أخذت مكاني الى جانبه على النول
الذي كان يحتله من معمله • غير أنه كان قد أكل كثيرا من تراب
الصوف ، فما لبث أن مات •

ومنذ ان قضى ولم يعد موجودا لينفي نفسه في عمله ، مات
معملنا بأنواله الثلاثة ، وانتهى الامر ••

كانت عيناه اللتان تشبهان عيني قط قد ثبتتا على شول وهما
تقدحان شررا • وأضاف يقول :

— فماذا أفادنا أننا أدينا عملنا في أمانة ؟ بماذا عاد علينا ذلك ؟
بقبض الربح ؟ واضطرت في آخر الامر أن أصبح عاملا في
معمل غرباء •

خيم الصمت مرة أخرى في ارتباك • أخذ ماحي بوغان ينظر
الى خيوط الصوف وهي تتشابك وتنحل على نول عكاشه الذي
كان يعمل قبالتة • وحرك يده بإشارة تدمر •

قال العم صقالي مدمدا :

— الشقاء كثير في هذا العالم ♦♦

فأضاف حمدوش :

— كثير جدا ، وان المرء ليخطر بباله مالا أدري ♦♦

فهز شول رأسه وهو يعض شفتيه ♦

— لست في الطريق القويم يا صاحبي ، لست في الطريق

القويم التي وضعك الله فيها ♦

فانتصب حمدوش وقد لاح في وجهه غضب متوحش ♦ ان

ذؤابته الحمراء تلتمع في عتمة الكهف ♦ قال :

— هذا ما يقال دائما للذين يجرؤون أن يشتكوا ♦♦

فما كان من قوطي الامين ، وهو حائك عجوز ، الا أن قال

وقد نفد صبره :

— هوه ♦♦♦ ألا انك لا تتورع ولا تتخرج ♦ اياك أن تضيف

الى ما قلت كلمة واحدة ، والا لم تعرف مايمكن أن يقع ♦♦

فأجاب حمدوش يقول :

— ماذا اذن ؟ ان الله نفسه تخلق عنا ♦

قال حمدوش ذلك ، وبصق بين قدميه على بساط للفضلات ،

مترقبا ان يكذبه أحد ♦

ولكن لم يفه أحد في المعمل بكلمة ♦

فقال في ألم :

— على كل حال ..

نظر ماحي بوengan الى عماله ثم أغمض عينيه كأنما هو يريد أن يحذف العالم حوله • وظل على هذه الحال مدة من الوقت • كان عمر الذي يعمل على مسافة بضعة خطوات يتأمل رأسه الضخم مبهوتا • وعاد اليه انزعاجه الشديد الذي شعر به في ذلك الصباح أمام هذا الرجل • ان المعلم يصمم شاريه ، فيصدر من ذلك صوت ضعيف • ليس هو الآن الا كتلة من عدم الاكتراث • ثم تقبض وجهه ، وبدا عليه أنه يستيقظ • طاف ببصره على الانوال متحاشيا أن ينظر الى العمال ، ثم نهض ليمضي •

ما ان خرج ماحي بوengan حتى تقلصت قسماات العمال غما وحزنا • ان النهار يوشك أن ينتهي • أرخى كل منهم العنان لحنقه ، وقام بينهم وبين الانوال صراع رهيب • الانوال الواطئة المرصوص بعضها الى جانب بعض تحت السقف المقبب ، تن ولا من يرحمها بين الرجال العشرة • ان بعضهم يتخالس النظر • وهذا بعض آخر يعتصم بصمت يفيض حقدا • وما ينفك صراخهم في طلب المزيد من الصوف المكب يطيش ألباب الصبية • يئس عمر من امدادهم بكل ما هم في حاجة اليه من هذا الصوف • كان يعمل مسرعا ، ثم يزيد سرعته وهو يحس أن قلبه يوشك أن ينفجر • انقضى آخر النهار دون ان يتبدل شيء • هبط الليل وما زال العمال يعملون •••

وحانت ساعة الانصراف ، لم يخطر ببال أحد أمر ترتيب
الكهف وكنسه • أدرك عمر انه ليس عليه أن يهتم كثيرا بهذا
الامر •

خرج عمر من الكهف • لا هو ولا الصبيان الآخرا ن حملوا
القطع المنتهية لتسليمها ، وذلك بسبب المطر • جعل عمر يركض
ركضا شديدا حتى لتكاد ساقاه تلامسان عنقه • كانت سيول
بيضاء تتلاحق سريعة في أعلى السماء ، وتجري في الشوارع ، وتتكسر
على الأرض • ان قطرات المطر تخز وجهه وخزا • وهذه أنوار
البيوت الاوروية أثناء الليل توقظ في الخيال صور حياة هادئة
سعيدة • كان عمر يركض طائش اللب أعمى البصر • ان الامطار
والرياح التي ينشقها ملء رئتيه تثير في صدره سعالا ممزقا •
ومع ذلك كان يتجمع في قلبه شعور دافئ بالرضى والارتياح ،
شعور لا عهد له بمثله من قبل •



في ساعة متأخرة من الليل ذهب هو وأمه الى مركز تموين الفحم ، فوجدا جمهورا من الناس قد اصطف بعضهم وراء بعض ينتظرون . لقد وصلا متأخرين ، فان الليل قد جاوز نصفه . احتلا مكانا بين المنتظرين على طول العنابر التي توزع الفحم على السكان الاصليين ، وأخذا ينتظران . كانت عيني قد ألفت على حايكها منشفة تتقي بها شدة البرد ، كما أن عمر قد وضع على رأسه كيسا من الاكياس يعتمر به على طريقة الشيالين في الموانئ . ان عمر قد أخذ يشعر باحساس لم يستطع كيف يعلله ، ولا عرف الى أي سبب يرجعه : لكان قنديلا يضيئه في داخل ، ويوقد في نفسه شعلة هادئة قوية . وظل الناس ينتظرون وينتظرون ، فالامطار الغزيرة تلهبهم بسياطها في غير انقطاع ، والليل يبدو لهم أنه لن ينتهي ، والسماء تنشر قلوها متموجة من المياه ما تنفك تهوي في غياهب الظلام .

وفي أثناء ذلك تسلل الى الفضاء شعاع نحيل من ضياء تحير قبل أن يظهر ، ولاح أن الامطار ستهدأ .

كانت قد انقضت ساعات حين بدأ توزيع مؤنة الفحم : خمسة كيلوات لكل فرد من أفراد الاسرة ، بالسعر المحدد . وأخذ

الصباح الشاحب يتمطى • حتى اذا وافت الساعة الحادية عشرة
جاء دور الام وابنها في استلام المؤنة من الفحم • فحمل عمر
الكيس الممتلىء نصفه على كتفيه وأسرع يعود الى البيت • لقد
تنفس الصعداء وسري عنه • ترك أمه بعيدة وراءه • فما ان وصلت
هذه بعد قليل حتى مدت بساط اليف المهترئة حواشيه ، الذي
ورثته عن الجدة ماما ، ورقدت عليه •

ونامت مستندة بظهرها الى الجدار ، وقد التف مندilha على
رأسها ، وقبع فوقه كالمنشفة التي يلف بها الرأس عند الخروج من
الحمام • ان فكيتها هابطان ، وقد انمطت شفتها بوزا ضخما •
أدرك عمر أن دفئا منعشا قد اجتاح أخيرا جسم أمه الذي صقع
من شدة البرد •



وهبت ريح ، فتطايرت الستارة الشخينة المسدلة على الباب ،
ولطخ المطر العتبة ، وغارت عاصفة أقسى من العواصف التي
سبقتها ، فلمح عمر الغسق الذي يلفح وجهه بأنفاسه الباردة •
ان هذه الغرفة الطويلة ذات البلاط المربع الاحمر ، والجدران
المطلية بكلس أخضر ، وما فيها من جلود الخراف الهزيلة ،
والاسمال البالية ، والخزانة المصنوعة من خشب ألواح السحاجر،
هذه الغرفة تبدو له الآن مهجورة لا يسكنها أحد •

راح عمر يتأمل هذه الاشياء وقد جلس على البساط أمام

الباب • ان صمتها الاخرس يدهشه • وثقلت نظراته عليها ، ولكن كل شيء منها ظل محتفظا بوجهه المألوف • استمر عمر في أحلامه • لا صوت الا صوت تساقط المطر يعكر هذا الصمت •

وأخرجه من تأملاته تنفس أمه السريع • نظر اليها متفرسا : انها عجوز • شعر بألم يحز في قلبه • انه لم يتساءل قبل الآن ما عسى أن يكون عمرها • وها هوذا يجري حسابا سريعا من أجل أن يقدر لها سنا • قال لنفسه : « أربعون سنة ... » بل انها لم تبلغ حتى الأربعين • « انها ما تزال كما كانت ، ما تزال على حالها ، غير أن هناك الآن هذه اللحظة من الغفو ، وذلك النهار الماطر ، وهذا المساء الكالح • ظل ينظر اليها صامتا • وكأن الافكار التي دارت في ذهن الفتى قد لامست أمه ، فاذا عيني تتحرك في رفق ، ثم ما تلبث أن تعود الى سباتها العميق •

لقد سبق ان قالت لالا في ذات يوم : « المرأة الوحيدة يدب اليها الهرم قبل غيرها » • ما أصدق ذلك القول ! ان عيني يمكن أن تكون بنت لالا سنا ، ومع ذلك فلو رآها في هذه اللحظة راء لحلف انها هي الاكبر سنا • ان كل زفرة من زفراتها تنفخ خديها واحدة بعد اخرى ، ثم تخرج من بين شفثيها في شخير • وفجأة نشقت نشقة عميقة ، وأخذت تتنفس من فمها الفاجر •

كان عمر يحس ان هوة تقوم بينه وبين هذه المرأة التي شوّه وجهها النوم • انه مشدوه أمام هذه المرأة الضعيفة المهجورة ، حتى لكأنه غريب عنها • أي شبه بين أمه وبين هذه العجوز

التي ترقد هنا ؟ ترى أكون لها هذا الوجه نفسه حين يوافيها
أجلها على حين بغة ؟ وهاجمت رأس الفتى أسئلة أخرى أيضا •
ما عساه يصنع حين يراها تلفظ أنفاسها الاخيرة ؟ أتراه يموت
قبلها ؟ أم أنها هي التي ستموت قبله ؟ •

وحدثت نفسه بقوله : « أفضل أن أموت من أجل أن تعيش
أمي » •

ان بقعا كبيرة من رطوبة تدب في السقف وعلى الجدران ،
فقتلهم طلاء الكلس • والعتمة ترشح من خلال الحواجز وتتجمع
في الغرفة • النهار في خارج الغرفة ما يزال أشهب •

سكان دار سيطار قد قبع كل منهم في ركنه • فناء البيت
خال • ولا صوت يخرج من المطبخ الكبير المشترك •

* * *

ما كان لعيني ان تدهش اكثر مما دهشت لو شددتها زند قوي
فاتنزعها من البله الذي كانت فيه • انها منذ لحظة تصارع اشباحا،
وتتمتم بأصوات هاذية لا معنى لها • ان هذه الظلمة التي تحاصر
الغرفة وتدور في الزوايا وما تنفك تكشف تشوشها أشد
التشويش •

فلما رأت في المكان الذي يجلس فيه عمر كتلة غامضة لا يكاد
يكون لها شكل ، قالت لنفسها ، وقد قوي صوتها :

— هذا كابوس حقا ! أظن أنني غفوت • ما هذا الاختناق ؟
ياروح أجدادي ! هل جثمت السماء على الارض ؟

وسألت الفتى تقول :

— ألم تجيء أخذك بعد ؟

كان في سؤالها قلق ♦ قال عمر لنفسه : « انهما لم تجيئا بعد .
لسبب بسيط هو أن مصنع السجاد لا يطلق سراحهما الا في
الساعة السادسة من المساء » ♦

— لماذا لا تذهب للقائهما يا بني ؟

— ألا تعلمين أنهما لا تخرجان من المصنع الا في الساعة
السادسة ؟ ستجيئان ♦

— أنت هنا في مأمن ، وليس على المرء أن يزعج نفسه من
أجل غيره ♦

وأضافت تقلد صوت ابنها :

— ستجيئان ♦♦

وبصقت على الارض احتقارا :

— تفو ♦♦♦♦

نظر الصبي من خلال شق الباب الى السماء المنخفضة التي
تتخللها التماعات مزرقّة ♦ ان رؤيتها أصبحت متعذرة منذ الآن ،
هذه السماء ♦

وصاحت عيني تقول في الظلام :

— با محمد في البيت ، والعمة فاطمة في السوق : هذا ما يجب أن يقال عنك •

— لن يأكلهما أحد •• ألا تتوین أن توقدي لنا بعض النار ؟

— كان ينبغي أن تكون الآن منهمكا في العمل لا قابعا في البيت ، لو لا أن قلبك ميت ••••

خير له أن لا يرد عليها بكلمة • انها تعتقد أن عليها ان تراكم الكوارث فوق رأسها الى غير نهاية • أليس خيرا من هذا ان تدفئ الغرفة قليلا ؟ ما أشد تقثيرها في استعمال هذا الفحم الذي يوزعه التموين ! • انها تضن بأشعال القليل من النار حتى في أيام البرد القارس ! انها بعد ان تهوي الطعام تبلى الموقد حفاظا على الجمر •

— لست تصلح لشيء •••

قال يدافع عن نفسه وقد نفذ صبره :

— هيني حاولت أن أخرج ، فهل ترين كيف أكون في الشارع ؟ بأية ملابس ؟

لقد تبللت ثيابه في الليلة البارحة ، وليس له ثياب غيرها •
قالت :

— ليس يهمك أنت الا أن تأكل وأن تنام •

ثم رددت بصوت كأنه صوت من يتكلم في منامه :

— وجدتَ الفندق والمطعم ، فتمتع ... وسوف نسأل عنك ذات يوم ، فإذا أنت قد اختفيت • ستطير عاجلا أو آجلا كما طار الآخرون •

« الآخرون ؟ من هم هؤلاء الآخرون ؟ » كذلك تساءل الصبي مروّعا ، وأصغى الى أمه بعد ذلك دون ان يطرف له جفن •

كان يعرف ما يطرأ على مزاجها بين الفينة والفينة من تقلب مخيف • هذا بعينه ما يحدث في كل مرة • منذ ثلاثة أيام قالت له ، ناسيةً أنها هي التي قادته الى ماحي بوغان : « لو بقيت في المدرسة لتمكن ان تحصل في المستقبل على عمل في مكتب ... ولو كنتَاسا • أما الآن فما عسى أن تصبح ؟ حائكا ؟ لسوف تعمل في النهار والليل دون ان تجني كسرة الخبز • هل تسمع ؟ لن تجني كسرة الخبز » •

استولى خدر الليل على الدار الواسعة • والامطار التي ضاعفت حماسها أثناء ذلك ما تزال تفضي الى الفناء والى الاروقة بهذيانها المحموم الذي لا ينقطع •

أضافت عيني تقول بعد ان ظلت صامتة خلال لحظة من الوقت :
— ... ذلك أنك تظن نفسك رجلا •

وعادت تنعته بأنه ليس له قلب ، وبأنه أشبه بالعلقة •

لقد استبد بها الغضب • ثم قالت تلومه : لعلك تحسب أن
ليس في قلبي الكفاية من الجروح •

إن صفير الريح وقرقعة المطر ، اللذين يختلطان بصيحات عيني،
قد أيقظتا في قلب عمر حزنا شديدا لا سبيل إلى وصفه •

كان يأس عيني ينبع من مصدر آخر ...

قالت مدممة :

— على هذه الأرض اللعينة ولدنا كما يولد العار ، وأكلنا كما
تأكل الحثالات ، ووتركنا كما يترك المنبوذون • حتى خبزنا أسود،
كسواد هذا الليل الذي يلفنا بظلامه •



عمر ينظر الى فرجة الباب الشاحبة ، وينظر الى الليل المخيم وراءها ، وعيني راقدة تحلم • ان الصبي يستعرض اعماله ويحس أنه مذنب رغم أنه • لقد أثرت في نفسه شكايات أمه •

انقضت بضع دقائق ، ثم قالت عيني تسأل ابنها :

— هل رأيت اعلان البلدية ؟ هل أعلن عن توزيع الدقيق ؟

— لا ، لم يعلن الا عن الزيت والصابون ، وقد اخذناهما •
فاذا فعلوا كما فعلوا في المرة الماضية ، كان توزيع الدقيق لا يجيء
أوانه الا بعد ثمانية أيام او تسعة •

— ليتهم يستعجلون !

قالت ذلك مدممة ، وزفرت زفرة عميقة ، ثم أضافت بلهجة
ذاهلة :

— الشحاذون يصلون من كل مكان في هذه الايام •

— لا غرابة في هذا والجو على ما ترين •

كان عمر متربعا على البساط ، يمسك بيديه قدميه العاريتين
ويصغي الى ضجة الامطار ويحدق الى الظلام • ان حواسه كلها

متجهة الى الليل الذي تجتاحه الزوابع • الريح تهب عاتية ، من الشمال تارة ومن الغرب تارة ، تحاول ان تهشم المدينة ، ولكنها تصطدم بجميع المنافذ عمياء مجنونة ، فتجدها موصدة مسدودة • « يجب أن أكافح جميع الصعوبات ، مهما يكلف الامر ، ولو أُرقت في سبيل ذلك دمي » •

قال عمر ذلك لنفسه ، فألقى هذا الوضوح على أفكاره ضياء ساطعا •

وُسَمِعَ وقعُ خطوات عجلَى بعد ضجة أحدثها دفع باب الدار دفعا قويا ، فاهتز من ذلك ما كان يرين على دار سييطار من ركود ثقيل • وتبعت ذلك بلبله ، وشبت آهات وصيحات •

قال عمر وهو ينتفض :

— جاءتا •

— اخرس •• أتظن أن ليس لي أذنان أسمع بهما ؟

ان خطوات نشيطة تفرقع في فناء البيت تحت • لقد عادت عيوشة ومريم من العمل مع العائدات من الجارات الصغيرات • انهن يشتمن تجهم السماء بالامطار ، غير أن اصواتهن المغردة تفيض بالضحكات •

قالت عيني لابنها آمرة :

— أشعل النور ، فقد خنقنا هذا الظلام •

وما هي الا لحظة حتى ظهرت البنتان وقد حسرتا عن الوجه
الحجاب . ان المطر الذي رشح الى الرأس من خلال الحايك
قد ألصق بالخدود خصلا من الشعر . وتغير كل شيء في الغرفة
حين وصولهما .

فما كادتا تدخلان الغرفة حتى انفجرتا في ثرثرة لا أول لها
ولا آخر ، ولا تقطعها الا صرخات صغيرة . ان كلا منهما تريد أن
تسبق الاخرى في الكلام ، حتى اذا استطاعت احدهما ذلك ،
لم تلبث الثانية أن تصيح نائرة :

— صوتك مسموع في أقصى المدينة . اسكتي . . . اف . . .

فتجيب الاولى ، أو تجيب الثانية :

— أتريدين أن تكلمي فمي ؟ يا نور عيني !

فلما تدمرت الام ، طفقت البنتان ترتبان الحجرة قليلا على
مهل ، غير أن مريم ما تلبث أن تتعب ، فتستلقي على البساط .
على أنهما لم تكفا عن الثرثرة أثناء طواف عيوشة في الغرفة ذهابا
وايابا . حتى اذا غابت عيوشة ، في لحظة من اللحظات ، خلسة ،
لتنزل الى زهور في الطابق الارضي ، لم يخف ذلك على عمر .
لقد تركت زهور زوجها منذ عدة أيام ، والناس في دار سبيطار
يحيطونها بعناية شديدة . والفتيات في ظمأ الى معرفة ما قد كان
الزواج بالنسبة اليها ، اكثر من غيرهن . فكان حشدهن المهذار
يجتمع في غرفة احدى الجارات تحت ، لان ام زهور ما كان لها

ان تحتل انعقاد هذه الاجتماعات عندها ، فقد كانت تنفجر باكية
متى لمس احد انفها ، على حد التعبير الشائع • انها منذ المشاجرة
الاولى التي وقعت بين زهور وبين زوجها لم تشأ ان تتدخل في
الامر ، حتى لقد تجهمت لابنتها النائحة ، خشية أن تعود اليها
مطرودة الى أمد طويل ، أو ربما مطلقةً ••• كانت اذا تصورت
هذا الاحتمال يغزوها رعب شديد • وهاهي ذي زهور قد رجعت
الى دار سبيطار •• مسكينة أمها ••• حين قصت زهور على أمها
كل ما قاسته تفصيلا ، لم تزد المرأة العجوز على أن قالت :

— حين تضرب احدا في ركن ، تلجأ الى ركن آخر •

لقد علم عمر بهذه التفاصيل من أحاديث أخته • أما زهور
فكان يلمحها من بعيد ، لحظات قصارا ، وقد ارتدت ثوبها
المصنوع من حرير بلون الورد ، وعلقت بأذنيها قرطين من ذهب •
لشد ما تغيرت ! ••



كان في يده خبز وسردينة من الليلة البارحة • الصبح يصبغ الجو بالبياض ومع ذلك يحاول ضوء النهار عبثا ان يتملص من الكفهرار الصقع الذي يغشى السماء • وفي بعيد دوى صغير صفارة انذار منذ لحظة ، كأنه صراخ انسان يسلم جلدته •

كان عمر قد بدأ يعض الخبز والسردينة في الهواء البارد ، وكان هذا الهواء يلهب شهوته الى الطعام •

الشوارع تبلغ من ازدحامها بالشحاذين ان الصبي اضطر في غير موضع أن يخطو فوق أجسام من أجل أن يمضي في سبيله • يشبه هذا ما كان يقع في الماضي حين كان المعّازون يجتازون المدينة في مطلع الصباح ، فتتجول قطعانهم في الشوارع والازقة • كان المعّازون في ذلك الوقت يحلبون ضروع الماعز فيملئون بلبنها الآنية التي يجيء بها اليهم سكان المدينة الناعسون • ولكن الناس يخطون الآن فوق بشر لا فوق معزى •

ان لهؤلاء المتشردين وجوها مصوّحة يابسة : نساء ذهبت أنوثتهن يجلسن على الارصفة او على درجات المخازن ، ورجال بعضهم واقف وبعضهم راقد وبعضهم قد انشى نصفين يخبىء يديه تحت أسماله الرثة •

كان عمر يلاحظهم أثناء مروره ويأكل • ان الضوء الضعيف يكشف عن عدد كبير من هؤلاء المتشردين ، فكلما سار الفتى التقى منهم بجديد • ان عددهم اكبر كثيرا مما تخيل الناس في أي يوم من الايام •

تقدم عمر من أحد هؤلاء المتشردين ، وهو رجل قصير مدبوغ الوجه ، فتردد عنده قليلا ، ثم مد اليه الخبز والسمك ، وهو يسأله هل يريد أن يأخذهما •

— هات •

— هل أنت شحاذ ؟

واقترب بعضهم ، ونظر اليه آخرون من بعد دون أن يتحركوا •

— هل أنا شحاذ ؟ أوه ...

المستطلعون الذين تجمعوا حول عمر يمدون اليه أعناقهم • والنساء الجالسات على الاكياس التفنن ينظرن اليه بمزيد من التفرس • ما من احد فتح فاه • وما من أحد تحرك •

لا شك أنهم كانوا سيظلون يرمقون عمر بهذه النظرة مدة طويلة لولا ان الرجل قد ترك عمر فجأة وأخذ يشغل نفسه بأن مال على بنت صغيرة مستندة بظهرها الى الجدار ، ففتت في كفه كسرة من الخبز في رفق ، ثم دس الخبز تحت منديلها ، ووضعها في فمها • ليست الفتاة كبيرة ، ولا هي رائعة الجمال • واخذ المتجمهرون من الرجال والنساء ينظرون اليها وهي تأكل دون ان يقولوا

شيئا • انها تقضم الخبز بأطراف أسنانها ، وهي تهز رأسها •
ان عينيها السوداوين تحترقان محمومتين ، وتلوحان مبتسمتين
تحت عمارة منديلها المعقود حول عنقها •

ونهض المتسول ، الذي لا شك أنه أبوها ، متدثرا بقطعة
من قماش مشمع خيط مع مربعات من جوخ عسكري • انه يحمل
الخبز والسمكة باحدى يديه ، لا يعرف ماذا يصنع بهما • وصفت
الريح أنفه بالياقة السائبة من ذلك القباء الغريب الذي يرتديه •
وكانت السحب تجري في السماء الماطرة سريعة متلاحقة • ان
البت الصغيرة لا تريد ان تأكل أو لا تستطيع ذلك •

الانظار كلها تتجه الآن الى الاب •

قال بلهجة شاكية :

— ما العمل ؟

فلم ينبس رجل من هؤلاء الشهود ولا نبست امرأة بكلمة
واحدة • ومضى عمر راكضا ، يدخل الشارع الذي أمامه •
وجرى هنالك بخطوات واسعة بين الواجهات الشهب المخضلة التي
تتلاقى في هذا المكان •••

* * *

الانوال تخبط وتقرقع • وعمر منكب على عمله شارد اللب ،
يشد الخيط كما تشد الامعاء من بطن خروف مبقر • اطار القصب

يدور ويسرع في دورانه ، وكتلة خفيفة تتجمع عند قدمي الصبي •

ان فم الهواء الفاجر قرب السقف مع قضبان من حديد ،
ينشر في الكهف ضوءا شاحبا • الحائكون يتحركون ذات اليمين
وذات الشمال في العتمة المتلبدة ، ووجوههم الصفراء تترجح على
وتيرة واحدة لا تتغير •

— نعم ، كانوا ينظرون الى الامور نظرة صحيحة ، فما كانوا
بالمتكبرين •

ترجعت كلمات با صقالي في الكهف ترجعا حزينا • ان فيها
حنينا قويا • ولقد قال منذ لحظة ، بتلك النبرة نفسها : « كانوا
ما يزالون يحترمون عمل البشر » •

ان الحائكين يقومون بعملهم في حركات سريعة • وكان العامل
العجوز يزود بالسداة ، في أعرق ركن من الكهف ، مواسير
القصب التي يمتلىء بها صندوق فاغر الى جانبه • ان دولابه يصير
صريرا لا يتعب ، فصوته أشبه بصوت قدر كبير يغلي • ما يزال
صقالي يتكلم بعبارات موجزة تتخللها فترات طويلة من الصمت •
قال : صحيح ان الناس في الماضي لم يعرفوا القطار ، ولا السيارة ،
ولا غير ذلك من عجائب هذا العصر • ولكن العمل كان في ذلك
الزمان بركة من البركات • كان المرء يكسب من المال اكثر مما
يستطيع انفاقه • وكان أرباب العمل أناسا كراما • • وكان كل
شيء رخيص الثمن • •

ان عمر لا ينتبه الا الى هذا الصوت المنصدع • ان اقوى أثر

أحس به في أولى أيامه هنا انما هو الاثر الذي احدثه في نفسه صقالي هذا ، بوجهه المتقلص المحمر وأنفه المكسور الذي تقشره نظارتان اهليلجيتان، وعينيه الدامعتين، المضطربتين تحت العدستين الكشيفتين ، المبتهلتين كعيني كلب لا صاحب له • ان صوته النحيل الذي يخرج من فمه الاجوف المختفي تحت لحية بلون الفضة ، يأخذ بمجامع قلبك ، فما يتركك بعد ذلك ابدا •

لم يفهم الصبي كلمات العجوز • هل يمكن ان يكون في مثل هذه الحاجة الشديدة الى الاحترام ؟ نظر اليه عمر ، ونظر كذلك الى الحائكين •••• هل يمكن ان يكون هؤلاء أيضا في حاجة قوية الى الاحترام ؟

وجالت في ذهنه فكرة غريبة • قال لنفسه : « لعلنا ندخل نحن أيضا في عداد هؤلاء الشحاذين الذين يملئون المدينة ، الا ان هيئاتهم لاقل من هيئاتنا هولا ! نحن هنا ، والناس فوق رؤوسنا تسير » •

وقطع عليه عكاشة تأملاته • قال :

— ولئى ذلك الزمان وولى أهله •

قال ذلك ومسح جبينه بكم قميصه ، ثم سحب الوتد الذي يجمد اسطوانة النول ، وأخذ يحاول ان يرى صقالي •

— لقد اصبح اصحاب العمل اشد بخلا ، وأشد قسوة بوجه خاص ، منذ صاروا يحاولون ان يجمعوا بأقصر وقت ممكن مالا ينافسون عليه أولئك الذين لا يكسبون منه الا قليلا •

قال ذلك وأدار اسطوانة النول دورتين ، سر عمر من سماع
صوته هذا الذي يخرج من صدره مليئا • ان عكاشة هو ذلك
العلاق الكريم الذي تفحه بقطعة من الخبز وقليل من الزيتون في
أول يوم من ايام عمله بالمعمل •

أجاب الرجل العجوز :

— لقد غضب الله علينا ، ففسد كل شيء ••• ازداد الفقير
فقرا ، وغلا ثمن الخبز ••• هذا هو الامر •••

أخذ أحد العمال يحزق على حين فجأة • هذه هي الطريقة
التي يعبر بها حمدوش عن مرحة • لكأنه يتغرغر • عرف عمر
ذلك •

وكما يربت المرء براحة يده على ظهر بهيمة طيبة ، اخذ
عكاشة يضرب سمط السداة امتحانا لحسن انشدادها • وهز
رأسه كأنه لا يجد ما يجب به عن ذلك الكلام ، أو كأنه ليس
هناك ما يقال في مثل هذه الحال •

قال مساعده حسين طرف مدمدما :

— النهاية ••• اسأل الله أن يكتب لنا الحج الى مكة ! •••

فتمتم عكاشة يقول في ذهول ، كرجع الصدى ، وهو يربط
الخيط :

— آمين ••

استأنف الحائكان الجالسان الى نول واحد ، عملهما • ففي

سلسلة من الحركات المحكمة ، يستقبل عكاشة المكوك الذي يقذفه اليه حسين طرف ، فيشد خيط الصوف الى وراء ، ثم يضغط بأصابع قدمه على دواسه ، ويقذف بالمكوك الى الجهة الاخرى • وبعد ذلك يخطب بالمشط خبطتين قويتين قصيرتين فتتلاصق خيوط اللحمة • ويعود زميله فيقيس من الخيط طولين •

ان عكاشة ، بما في حركاته من مرونة وقوة ، يذكر كرم بمثل ذلك من المدلكين الذين يعملون في الحمامات العامة • وصدره العريض الاشعر الذي يشبه قرمة من قرم الجزارين ، لا يغطيه الا قميص من قماش قطني مخطط ، يتدلى على سرواله كأنه دراعة • ان لحيته الشعثاء المفروقة تظامن من شعورك بالخشونة التي تتجلى فيه وتجعلك من أمرك في ارتباك • ان العناد الذي يظهر في عينيه ويغشيهما بالضباب لا يشتمل على مرارة بل على حزن • انه لو اوضح أن قلب هذا الرجل يخفق اختناقاً •

قال مولاي بو انور مستفهما ، وهو يعرق ويلهث :

— فيم تتكلمون ؟

ونظر فلم يظهر في وجهه المهدم ظل لفكرة •

وكان الجواب ان ارتفع صوت أشبه بالصوت الذي يخرج من حك عود ثقاب ، ارتفع هذا الصوت يقول :

— غريب • • انه لا يفهم عن أي احترام أتكلم •

أدار مولاي بو أنور حدقته • انه يلهث كالمختنق • نظر الى

عيون رفاقه يبحث عن جواب ♦

— نعم لا أفهم ♦♦♦

فتدخل عكاشة يقول :

— العم صقالي يتكلم عن الاحترام الذي كان يحمله أصحاب
المعامل للعمل الذي تقوم به ♦

فزال عن عينيه السوداوين العميقتين ذلك الاتقاد الخفي الذي
كان فيهما ، انهما لتكادان تبدوان الآن مرحتين ♦

ولم ينقطع مولاي عن اللهاث ♦ انه يعاني من مرض الربو ،
وتنفسه يُسمع من بعيد ♦ تهدل طرفا فمه من الدهشة ، وظل على
هذه الحال مدة طويلة ♦ قال :

— لا أفهم ♦♦♦♦

ثم عاد يعمل وهو يكبح تنفسه ، دون ان تذهب عنه دهشته ♦
قال صقالي من آخر الكهف المعتم :

— غريب ♦♦

وأطلق ضحكة ذات صغير :

— انكم ما تزالون شبانا والحق يقال ♦

وضاعت هذه الكلمات في ضوضاء المعمل ، ولكنها لم تفت
بعض الآذان ♦

صاح احد العمال يسأل :

— ما نزال ماذا ؟

— ما تزالون شبانا ♦♦

— شبانا ؟

— أصغر سنا من ان تفهموا هذا الامر ♦

— من أن نفهم ماذا ؟

— من ان تفهموا ما كان يشعر به أرباب العمل من احترام

لعملنا ♦♦

* * *

لا تسمع الآن الا حركة المكايك تذهب وتجيء سريعة ، والا اصطفاق امشاط الانوال بغير انقطاع ، أو الصوت الرتيب الهادئ الذي يحدثه دوران مغزل باصقالي ♦ الحائكون مكبون على عملهم ، حفاة الاقدام ، وهم يرتدون قمصانا وسراويل مهترئة مبقعة ♦ انهم يعملون على أنوالهم في همة ونشاط وقد اكتست وجوههم تعبيرا قاسيا مستغلقا ♦

وكان عمر غارقا في تأملاته ، قد نسي كل ما يحيط به ،

نسي الحجر المظلم العفن والعمل الذي تقوم به يداه كالتين ♦

وفجأة احتد دلو ، فقال مَعولاً :

— افهموا كما يحلو لكم أن تفهموا ♦♦ رتبوا الاشياء على

ما يشاء لكم هواكم .. صدعوا رؤوسكم كما تريدون .. فالامر هو هذا ، ولن يكون غير ذلك .

قال ذلك ثم ثأثأ ونطق بعبارات مفككة ، بل ولفظ شتائم ضخمة . وكان لا بد له بعد ذلك أن يسكت ، لان العمل كله قد لاذ بالصمت .

وكان حمزة ، الى ذلك الحين ، يراقب هؤلاء وأولئك في هدوء ، فقال عندئذ :

— انكم تتناقشون ، وتحتدون ، وتتناقضون ... فمن أجل ماذا ؟ أمن أجل ان تجدوا آخر الامر انكم متفقون ؟ انكم اذن لتتعبون ألسنتكم سدى .. ماذا يجدينا ان تتساءل عن أرباب العمل في الزمان الماضي هل كانوا يحترمون عملنا أو لا يحترمونه ؟ انني ألقى عليكم هذا السؤال : ماذا ينفعنا ان نعرف هذا الامر .. أليس أجدر بكم ان تنظروا في أحوالكم ، اليوم ؟

وأردف يقول وهو يتسم ابتسامة ذات مغزى ، ويتمهل في كلامه :

— ثقوا أنها أحوال يرثى لها !

فالتفت حمدوش نحو باصقالي بحركة قوية ، وصاح يقول له :

— هيه .. هل سمعت ؟ ما الذي ترجوه من احترامهم ؟

وتوقف الشاب الاحمر عن الكلام . ان ابتسامة حادة تشد شفثيه . وحين قرر ان يستأنف الكلام ، زفر وقال :

— أنت عجوز !

فأجاب الصوت الجاف مرددا :

— عجوز ؟ لم يبق لي الا أن أفطس ؟

وعلى أن صقالي احتج على هذا النحو من الاحتجاج فقد صمت وأطرق ♦

— صقالي ♦♦

— ماذا ؟

— أنت عجوز جدا ، نعم ♦♦♦

— عجوز جدا ؟

قال حمدوش مؤكدا :

— لم يبق لاجلنا الا قليل ♦ نحن على وشك أن نشب الوثبة الكبرى ♦ وما الذي جنيناه من هذه الحياة ؟ يمكن أن نقول : لا شيء ♦

وردد يقول وهو يشعر بما أثاره من اهتمام :

— لا شيء ♦♦♦

ورنح رأسه يئمة ويسرة ♦ كان يبدو عليه أنه لم يبق فيه كلامه ♦ وكان صقالي ينتبه اليه أشد الانتباه ، وكذلك كان الآخرون ♦

— جائز أننا عرفنا بضع لحظات من سعادة ، ولكن ما اكثرت الايام السود الى جانب ذلك ! لقد حرمتنا من كل شيء ♦ ولم

”نَوَقَّ” أي نوع من أنواع الكروب والمصائب • قطرات من
فرح ، وبحر من مرارة

قال هذا الكلام وهو يبرز كل كلمة ، ويتلبث على كل مقطع •
— وفي هذا كله ليس هناك الا شيء واحد يزعجنا ، هو أن
أرباب العمل لا يولوننا قدرا كافيا من الاحترام !

أظلمت نفس عمر على حين فجأة • ان هذا الشاب الاحمر يثير
في نفسه كرها ليس له حدود • ولم ينبس الآخرون بكلمة •
قال العجوز معترضا بصوت خافت :
— نصيبنا في المثوى الآخر •

فانطلق حمدوش يضحك ضحكا خافتا ، ويردد بصوت عالٍ
واذعان كاذب :

— في المثوى الآخر ..

فقال صقالي يحتج في ضعف :

— لا خير في هذه الحياة الدنيا ، ولا

ولكنه ما ان بدأ عبارته حتى اختنق • اكتسى وجه العامل
العجوز صورة طفل مؤتّب ، واستطال أنفه حتى سقط على فمه
الغائر ، ولم يستطع أن يمسك عن ذرف الدموع •

قال قوطي الامين مدمما بين أسنانه :

— زنادقة ملعونون

الامين ما يزال يحرك شفتيه مدمدا بكلمات وكلمات •

انه أطحل اللون عريض الصلبين ، يحمل وجهه المتأني العابس
سنيه الخمسين • ان المرء لا يمكن ان يخلط بينه وبين أي رجل
من الرجال العاملين في هذا المعمل • عباءته المصنوعة من لباد
أزرق شاحب ، المزينة بالصفائر ، وسرواله العريضان المصنوعان
من قماش سميك أبيض ، وعنايته الشديدة بنظافة هيئته خاصة ،
كل ذلك يتعارض تعارضا قويا مع مظهر سائر العمال •

ردد الامين يقول مرارا كثيرة :

— مصيركم الى جهنم ، مصيركم جميعا الى جهنم •

ولكن لم يكثرث بكلامه أحد • وحبذ عمر هذه القسوة منه ،
رغم ان الرجل لم يكن محببا الى القلب ، ورغم أن عمر كان
لا يستطيب كثيرا خلاله القديمة البالية •

وقد أرسل عمر بعد بضع لحظات في عمل من الاعمال ، فلما
عاد وجد الامين عند مدخل الكهف مقعيا أمام طاسة من الماء يتوضأ ،
فمضى اليه رأسا ، وقال له هامسا في أذنيه وهو يضع يده على
كتفه :

— هم يسخرون منك يا الامين ، أما أنا فوالله ما فعلت ذلك
قط

فرفع الحائك حاجبه ، وكال الصبي بطرف عينه • ان الريح
العاصفة التي كانت تكنس الشارع الصغير قد صبغت وجهه
السمين المتعجب بلون أزرق • وهز الامين كتفه التي وضع عليها
الصبي يده ، وطرده •

— كفاك لهوا ••• هيا امض الى عملك ••

فذهب عمر مجروح القلب •

ومضى الامين في وضوئه ، وقد رد عمامته حتى صارت عند
النقرة ، فظهرت جمجمته يعلوها تاج من شعر مخلوق بالموسى •
غسل وجهه ، فساعديه فقدميه ، ثم مر بيديه المبلولتين على رأسه
ولحيته • حتى اذا فرغ من وضوئه عاد فنزل الى الكهف ، وارتدى
ثيابه ، وعقد الازرار حتى الذقن ، وجعل يصلي ساكنا لا يهتز ،
فهو تارة قائم ، وتارة ساجد • وظل يصلي مدة طويلة •

كان عمر يرقبه من الركن الذي هو فيه • لقد سبق ان رأى
كثيرا من الناس يصلون ، ولكنه لم ير في حياته أحدا يصلي كما
يصلي قوطي الامين • ان في وجهه بلاغة خرساء قلما يرى المرء
مثلها في وجه غيره • ان هذا الرجل القاسي يبدو بأئسا كل البؤس
وهو يتعبد •

فلما شارف على الانتهاء من صلاته ، التفت برأسه الى يمين

ثم الى شمال • فلمح عمر ، فهز رأسه هذا خفيفا لا يدرك • كان وجهه قد اطمأن ، رغم أنه ما يزال مطبوعا بطابع الالم •
وما ان جلس الى نوله حتى أشار الى عمر أن يأتي اليه ، فلما اقترب منه الصبي قال :

— اصعد الى السقيفة فائتني بمكوك جيد • انك نشيط كقرد ••

فوثب الصبي على السلم راضيا ، ولكن ما ان وصل الى آخر درجة حتى أمسك أحد بساقه من تحت ، فتشبث الصبي بحافة السقيفة وأخذ يصرخ قائلا أنه يوشك أن يسقط على الارض • كان الشاب الاحمر يشده في اصرار وعناد وهو يضحك •

— قل : « مياو ••• أنا قطة » ، والا لم أتركك •

ولكن عمر استطاع أن يتملص منه بهزة قوية ، وقال له يهدده في غيظ :

— لألظمن بقدمي بوزك ••

انه ما يزال حاقدا عليه منذ مدة • انه لم ينس كيف عامل حمدوش صاحبه باصقالي •

وانصرف عنه حمدوش وأصبح لا ينتبه اليه ، والتفت الى عباس صباغ يقول له :

— انك لشر رفيق ان لم تمض فورا فتشتري بضع فطائر صغيرة طيبة ، تولمها لنا •

قذف الصبي للامين بأربعة مكاييك أو خمسة ، من أجل أن
بختار الحائك منها المكوك الذي يرضيه ، ثم نزل • سأل الرجل
عندئذ :

— من أنت يا بني ؟

فتحير الصبي ولم يعرف بماذا يجيب •
— ... أقصد ... من أبوك ؟

فاحمر وجه الطفل ثم لم يلبث أن استرد سمرته ، وقال متمتما :
— لقد مات أبي منذ مدة طويلة ، ولست أذكره •

لماذا هذا الاستجواب ؟ ان الامين هو أول شخص في العمل
يعنيه أن يعرف من هو هذا الصبي •
— أنت اذن يتيم ؟ كان الله معك •

قال له الامين ذلك وهو يمسح بيده رأسه •
— ماذا كان اسم أبيك ؟

وانقضت برهة من الزمان قبل أن يتهيأ الصبي للجواب •
— ماذا كان اسمه ؟

والتقت نظرات عمر بنظرات الحائك • قال :
— أحمد دزيري •

— آ ...

هتف العجوز بذلك ، ثم أضاف بعد لحظة قصيرة من تفكير :
— الحاج بن علي هو اذن جدك • • • أنا مخطيء ؟ رحمه الله
أنى كان الآن •

• وقطب حاجبيه •

— نعم كان حائكا من أمهر الحائكين •••

وعاد الى وجهه شيء من بشاشة ، وانبسبت أساريره كأنما
رغم ارادته : ان وجهه المحاط بشاش ناصع البياض يغطي أذنيه ،
يعبر عن يقظة ذكريات بعيدة في خياله • قال :

— أنت اذن ابن أحمد دزيري ؟ لقد كان أبوك رجلا شريفا ،
ولكن كانت له افكار ، حمانا الله ••• افكار •••

قال ذلك ورفع ذراعيه علامة الحيرة والارتباك ، وكظم تنهدات
همت أن تخرج من صدره على غير ارادة منه •

— كان أبوك يقول كلاما لا يمكن أن تسمعه اذن رجل مسلم •
كان يدعي أن جميع الناس أشباه متساوون •• فكيف يصح هذا
الكلام ؟ انهم متساوون حقا أمام بارئهم ••• ولكن في الحياة ••
(وهز رأسه بحركة انكار) ••• هذا مستحيل •••

وغشى الحزن نظرتة ، وعاد قاسيا صلبا كما كان •

ثم قال بصوت واضح بعد لحظة من صمت :

— كان أبوك يعترض على الشريعة الحنيفة ، دون أن يعلم
ذلك • ماذا أقول ؟ ••• لقد مات •

وتابع يقول بتلك اللهجة الوقور نفسها :

— أنا أنكلم ، وأنت في أغلب الظن لا تفهم ما أقول • ولكن
هل أنا نفسي الا خاطيء مسكين ؟ اللهم ارحم عبادك •• لم يكن

أبوك بالشخص الوحيد الذي يفكر هذا التفكير • أنا نفسي
أخذ في التفكير أحيانا ••• فيضل عقلي ، ولا أفهم من الامور
شيئا • يارب ، يارب ، ما هذا الجنون الذي يستبد بعقول الناس
في هذه الايام ، فكأنهم لا يؤمنون بوجود الله •

وألقى نظرات يائسة على ما حوله ، ثم أمسك عن الكلام •
ظل خلال مدة طويلة نهبا لاضطراب محموم ، وتجهم وجهه وبان
فيه الهم ، فلما سقطت نظراته على الصبي مرة أخرى ، بدا عليه
أنه يدهش لرؤيته • وتنهّد في عناء مرات متوالية ، ثم قال للصبي
يسأله :

— ماذا كنت تعمل قبل أن تأتي الى هنا ؟

— كنت أذهب الى المدرسة •

— ها ••• أنت تعرف القراءة والكتابة ؟

— نعم •

— وتعرف القراءة والكتابة بالعربية ؟

— لا •

— كيف لا ؟ أتجهل لغتك يا بني ؟

ونظر قوطي الامين الى الصبي متفرسا مدهوشا ، وصمت •
لا شيء يمكن أن يخرجّه في هذه المرة عن صمته • عاد الصبي
الى عمله ، وقد أقلقته تلك الكلمات الاخيرة التي قالها له الرجل
العجوز • وأمام مكبه تذكر المدرسة وتذكر دروسه ، فقال لنفسه :
« ما كانت حاجتي الى هذا كله ؟ » •

كان المطر قد عاد يقرع زجاج النوافذ • الريح تدندن في
الشارع الصغير أغنيتها الرتيبة • الاقدام التي تخوض في الوحل
وبرك الماء يصل صوتها الضعيف الى الكهف • والانوال الخمسة
التي يواجه اثنان منها الثلاثة الاخرى ، تترجح ترجح دواب ثقيلة •
والمكاب تدور فيخرج من دورانها صوت أجنحة تطير : فر • فر •
قال صقالي :

— انهم اليوم لا يحترمون شيئا ولا يحترمون أحدا •••

فلم توقظ كلماته أي صدى • المسدية العملاقة تمد أذرعها
الى قبة الكهف ، قرب عمر ، كأنها تتجه بالدعاء الى شخص أو الى
شيء لا يظهر • وعدد من المكاب يتداخل في هذه الزاوية من
الكهف ، متراكما بعضه فوق بعض فوضى ، مرميا على صندوق
من خشب نخر ، وعلى هذا الصندوق نفسه ، المتقشر الدهان ،
وضعت كدستان من الاغطية • وفي آخر الكهف أعمدة سميكة
من خشب البلوط فلا ترى في هذه القمة الا رؤية غامضة ، فعلى
الاعمدة تقوم السقيفة التي يقبع تحتها صقالي مع دولاب الغزل
الذي يديره • ان المرء لا يرى من هذا العجوز الذي يعمل في
تكيب الصوف الا بياض عمامته •

قال عمر لنفسه وهو يحدق الى هذا الشبح : « حزين ومضحك •• أي احترام ينتظر من هؤلاء الناس ؟ » • وارتضى انتباهه فجأة ، وتذكر البنت الصغيرة التي رآها في صباح أمس ، فاضطربت نفسه مرة أخرى ذلك الاضطراب الذي غزاه حين كان في طريقه الى المعمل •

استمر صقالي يتحدث عن أرباب العمل الماضين الذين كانوا يحترمون عمالهم ، ونعى على أرباب العمل في هذه الايام أنهم نسوا كل شيء • ولكن صوته لم يلبث أن أنطفأ كما ينطفئ قنديل نفخت عليه •

ولم يتول أحد قطع الصمت الذي خيم على المعمل منذ تلك اللحظة • أسرع عمر في عمله • انه يدير مكبه بمزيد من العجلة •

ثم أخذ صقالي يرتل آيات من القرآن ، فلم يلبث قوطي الامين أن أخذ يصاحبه في الترتيل شيئاً فشيئاً • ان صوت صقالي خشن عصبي ، أما صوت الامين فهو سيال عميق يدرك المرء أنه نال من التدريب قسطاً لم ينله الآخر ، والصوتان يتساعدان الآن ويتساندان ، حتى لقد صارا في آخر الامر كصوت واحد يغرق الكهف في جو من الصلاة والدعاء •

فر •• فر ••• ان عمر ما ينفك يشد خيط الصوف ، دون أن تحس يداه المتورمتان الضاربتان الى لون البنفسج (لكأن المرء حين يراهما يرى باذنجانيتين) ملمسها الناعم • ان أفكارا حزينة قلقة تخب في رأسه ، وان قشعريات تجري في فقرات ظهره •

وأسنانه تصطك على ايقاع نواح المكب وهو يدور وينخر ♦

اكتست وجوه جميع الحائكين هيئة الجد والتعب ♦ والرأس الكبير ذو اللحية ، رأس عكاشة ، يهتز وقد غشت عينيه ظلال متوحشة قاسية ♦ والهمة الراحشة التي تهدد المعمل كله ، ما تنفك تتخللها شتائم يلفظها قائلوها بصوت خافت ♦

غاب وعي عمر عن العمل الذي يقوم به ♦ ظل مدة طويلة من الوقت سادرا لا يدري الا الله فيما كان يفكر ♦ حتى اذا تاب اليه شعوره حملت اليه أنسام الكهف رائحة تننة قوية اشماز منها اشمنزاز شديدا ♦

العمال يدفعون المكايك ويخبطون الامشاط وقد تجهمت وجوههم وصمتوا لا ينسبون بكلمة ♦ والضربات تدوي معا كأنها عدة مداق تهوي في آن واحد ، وقد بلغت من السرعة والاحكام أنها لا تكاد ترى في هذا الضوء الضعيف الساقط من عين النافذة العالية الصغيرة ♦ ومن حين الى حين ينتصب أحد الحائكين ليخفف وجهه الغارق في العرق ♦

مرة أخرى شعر عمر بحاجة قوية لا تغالب تحمله على الفرار بفكره من الكهف الى الصباح البارد والشوارع المضطربة بالناس ♦ ها هو ذا وجه صغير غارق في عينين واسعتين يبرز من الظل الكثيف ويخطر أمامه ويتسم له ♦ يالها من ابتسامة حزينة ! ويكبر الوجه فجأة ويستحيل الى ظل كبير مفرط في الكبر ♦ نظر عمر حوله : ان المعمل غارق في حمى صامتة ، ونور النهار يلطو تحت

القبة • ضربات المكاكيك وخبطات الامشاط تتتابع متناوبة •

في هذه اللحظة زفر مولاي بو أنور يقول بغير صوت :

— انتهى ••• لا أستطيع •••

مد عمر أذنه : ان أنات ضعيفة مكظومة تصل الى مسمعه ،
ولكن الانات ما تنفك تتسع شيئاً بعد شيء وتستحيل الى انتحاب
كأنه يخرج من باطن الارض • ان مولاي يتأوه حتى لكأنه يشهق
باكيا •

بحث الصبي عن نظرة عكاشة ، ولكن عكاشة كان قد أستند
ببطنه الى اسطوانة النول ، وخفض رأسه متشاغلا •

انطلق صقالي يقول فجأة بصوته الحاد :

— هيه هيه ، ياشقي ، ياغبي ، أنظر ماذا صنعت وأنت تتأمل
الهواء غافلا ••

فنظر عمر فرأى المصيبة ، فأرخى الخيط الذي
كان يشده بيده • انه في أثناء ذهوله قد ترك كومة الصوف
تتشرج خيطانها عند قدميه • وكان عباس صباغ على وشك أن
يحتاج الى غزل ، فأخذ يرغي ويزبد • وقرع عمر تقريعاً شديداً
رغم أنه رتب خيوطه وتخلص من الورطة بسرعة •



كان حمدوش راقدا على رزم من الصوف ، فنهض نصف نهوض ، ونظر في الفراغ أمامه ، وهتف يقول :

— انه لشقاء أن يعيش المرء مع أناس مثلكم ...

وظل ينظر من غير أن يرى ، كمن يسير في نومه •

ان الحائكين يتمطون ويتشاءبون هنا وهناك في الكهف ، مستسلمين لاسترخاء فترة الظهر ، ولكن بعضهم ما يزال محتفظا بهيئة الحنق في أثناء الراحة • لم يتنازل أحد فيكثرث أي اكتراث بوقاحة هذا الشاب الاحمر ، لا ولا بدا على أحد أنه سمع كلامه • وظل حمدوش جامدا على وضعه ذاك الذي يشبه أن يكون وضع انسان يحلم ، ثم لم يلبث أن تنهد وانقلب على رزم الصوف التي كان راقدا عليها •

ولم يتحرك بعد ذلك قط • فكان يمكن أن يظن المرء أنه نام لولا أن فرط سكونه كان يشي هو نفسه بأنه في حالة عصبية •

عاد عدد من الحائكين الى أنوالهم • وأخذت الاحاديث تتلاحق في المعمل كله • على أن الذين أطلوا فترة الراحة قد آثروا أن يظلوا خارج المناقشات • وقد استأنف الصبية عملهم

أول من استأنفوه • ان عليهم أن يهيئوا الصوف للانوال التي
ستأخذ في الحركة بعد قليل •

ثاءب عباس صباغ في بطاء ، وقال :

— هناك شيء يصدع رأسي منذ مدة طويلة • انني غير راض
عن نفسي • لست أفهم ما الذي بي • ومع ذلك ما أزال أعيش
كما عشت دائما ، لم أتعير • انني غير راض •

ان عباس صباغ يعمل مع عثمان الاحمر الملقب باسم عثمان
الموت : لقد بدءا يعملان كلاهما منذ بضع دقائق • قال عباس
كلماته تلك ثم توقف عن الكلام وعن العمل جميعا • انه يفكر
ساكنا جامدا وقد فرغت عينه من كل معنى •

— أصبحت لاأؤمن بشيء ، أصبحت لاأؤمن بما أعمله • هذا
هو الامر •

قال ذلك ودهش هو نفسه من هذا الذي أعرب عنه ، وتابع
يقول في اندفاع :

— يقول كل واحد مثلا ان على الانسان أن يحب أخاه
الانسان • فمن منا يعمل وفقا لهذه القاعدة ؟ من منا يحترم جاره ؟

قال ذلك وألقى على رفاقه نظرة سريعة • ان لعباس صباغ
فما كبيرا ذا أسنان ضخمة ، وعينين بارزتين عكرتين لا تستطيع أن
تحدد لهما لونا ، ووجها متكسر الزوايا • لقد انتصب رافعا
رأسه ، وكأن نظرتيه تبتلع كل ما تصادفه • ان الصبية يخشون
مزاجه الحزين •

— من منكم يستطيع مثلا أن يشرح لي هذا الامر : انني أحب الحياة عامة ، فلماذا أحتقر اذن حياتي وأكرهها بكل ما أوتيت من قوى ؟ هه ...

قال ذلك وتظاهر بالاهتمام فجأة بشقة القماش التي فرغ من نسجها هو ومساعدته منذ قليل ، فلم يترك عيبا صغيرا من عيوبها الا فحصه فحصا دقيقا .

واستشاط باقي العمال غيظا من أوامر شول ، وقبلوا أخيرا ان يقوموا الى أنوالهم .

وفيما كان حمدوش يمضي الى مكانه ، حلق الى عباس ، ثم بصق في احتقار .

واستأنف عباس يقول دون أن يحفل به :

— يستحي المرء أن يقول (وكان قد أخذ يفحص الحجرة) ان حياتنا تبلغ من الضيق ان بقعة من البق لا يمكن أن يحتملها . . نعم ، انها لحياة سيئة هذه الحياة التي نعيشها ، لا جدال في هذا . وظهر عليه الانزعاج فصمت ، ثم هز رأسه ، واضاف يقول :

— هناك لحظات لا ينصب المرء فيها على العمل بقلبه ، فاليدان تعملان ، ولكن الفكر شارد في مكان آخر ، ويشب القلق عندئذ في النفس ، فما نطيق بعد ذلك صبرا . يقول بعض الناس : « الانسان هو كيت وكيت » . الانسان . . الانسان . . ان أفواههم ممتلئة بهذه الكلمة . ألا قولوا لي أيها الاصدقاء :

من هو الانسان الذي يعنونه ؟ أريد ان اعرف من هو الانسان الذي يعنونه ! هل يعنون بيتان ؟ هل يعنون روتشيلد ؟ أم هم يعنونني أنا ؟ يجب ان نقول كلاما واضحا ، يجب أن لا نخلط جميع الاشياء في كيس واحد ، ولا تحاولوا خاصة ان تلقوا في روعي أنني شبيه بذلك الذي يملك نصف مقاطعة •• لا ولا تحاولوا ان تقنعوني بأنني أتعذب لأنني خلقت للعذاب • أنني انسان كأني انسان آخر •••

وازداد ارتبাকে من شعوره بأنه يعبر عن كل ما يحسه • ان عباس لا يجيد الكلام على نحو واضح • كان اذا اقل شيئا وجب ان يفهم الناس منه شيئا آخر ••• كذلك كان شأنه دائما • وتلمل الحائكون الذين كانوا يصغون اليه • انهم يلقون عليه منذ الآن نظرة ضجرة لا تبشر بخير •

قال حمزة منكرا :

— انسان كأني انسان آخر ؟ كلا •

فنظر عباس الى معارضه ذي الوجه السميک • بدا عليه أنه يضيق ذرعا بهذه الملاحظة التي تحمل اليه تكذيبا يوجسه منذ مدة طويلة •

وظل يحدق اليه تحديقا غريبا •

قال حمزة :

— ما نعرفه عن الحياة هو اننا لسنا بشرا كسائر البشر •••

ان حمزة يتكلم بصوت عال ، ويميز كلماته مستقلة واضحة •
انه من ناحية الجسم يشبه ان يكون كتلة واحدة : ضخم الوجه ،
عالي المنكين ، سميك الاطراف • لقد تجاوز الاربعين من عمره ،
وهو مع ذلك يحدق الى الناس والى الاشياء بنظرة شهباء ضاربة
الى زرقة ، نظرة خفيفة ، نافذة • وله لحية كثيفة وخطها الشيب
فهى تضيء عليه شيئا من مهابة ، على ان هيئته عادية بوجه
الاجمال ••• كان قد نضا عن رأسه طربوشه المصنوع من احمر
اللباد ، ووضعه الى جانبه ، معرضا للهواء جمجمته الصلعاء من
الجبين حتى النقرة •

كان عمر ، كغيره ، لا يجهل ان حمزة قد قضى في السجن
سنين طويلة ، وان هناك ظلا يغشى هذا الامر • ما من أحد يعرف
حقيقة السبب الذي سجن من أجله • ويقول بعضهم ان الحبس
قد بلبل أفكاره •

قال أيضا :

— نعيش العمر كله بين أنوال ، في كهوف •

وكان عباس يلاحظه سادرا يفكر •

— ان نفوسنا كهذا الكهف الذي نعيش فيه • الناس في
أعلى أحرار ، ونحن ههنا عبيد • ما زيادة قرش على أجر اليوم
بالهدف الذي يمكن أن يحفل به عبد •

فدمدم عباس يقول :

— حقا ... ليس الحصول على زيادة في الشقاء بالامر الذي
يمكن أن يهتم أناسا يريدون ان يتحرروا من سجنهم ، اناسا لا قيمة
لهم ...

كان عمر يصغي • نعم ، تلك هي حقيقة الحال • ولكن ما بال
هؤلاء الناس يظلون ساكنين كالحجارة •

وتابع عباس يقول :

— حقا ... ما قيمة المطالبة بكسرة خبز ؟

وأضاف حمزة :

— ان أناسا وصلوا الى حد أصبحوا فيه لا قيمة لهم ،
وصاروا أصفارا ، لا يمكن ان يفعلوا الا شيئا واحدا ... هو
أن يطالبوا بكل شيء •

فأمن عباس صباغ يقول مصرا على فكرته :

— لا قيمة للمطالبة بشيء ما ، لا قيمة للمطالبة بمائة قرش في
اليوم •• هذا كله لا قيمة له ...

فقال الشاب الاحمر هازئا في مرارة :

— لاحظوا أنه ليس يضرنا أن يزيد طعامنا قليلا •

فلم يلتفت اليه أحد •

قال حمزة :

— ان أناسا مثلنا هم مقياس كل شيء : هم المقياس الذي
يقدر به بلد ، او شعب ، أو عالم •

فما كان من الشاب الاحمر الا أن لفه بنظرة هي من نوع
الحق الشديد الذي يحتقن به قلبه ، لفه بهذه النظرة وهو يعرض
شفتيه •

وتابع حمزة يقول غير مكترث :

— لقد وصلنا الى الدرك الاسفل ، فلن تجدنا الطرق العادية
من أجل ان نعود فنصبح بشرا ، لا بد لنا في سبيل ذلك من
أن نقلب العالم رأسا على عقب ، وربما كان علينا أن نروعه •••
لقد أصبح في كلامه بطاء ، وشيء من الارتداد الى الوراء
والرجعة الى النفس •

وعاد يؤكد قائلا :

— ان هناك قدرا يجثم علينا ، فاذا أردنا ان نفلت منه ،
وجب علينا ان نحطم كل شيء •

قال ذلك وبع صوته مرة أخرى •

— علينا ان نبذل العالم والانسان •• نعم •• ولكن لا بد
أولا من هدم كل شيء ••

وخيم الصمت على العمل • ترك حمزة جملته معلقة ، وهو
يحرك يده بحركة احتقار تكنس الفضاء • وغابت نظرة الحائك
في بعيد • ثم لم يلبث ان مال هو أيضا على نوله ، واستغرقه
العمل •

فرغ صبر الشاب الاحمر ، فاذا هو يعول قائلا :

— أنا مريض ♦

فأجابه شول :

— لا يظهر هذا لمن يراك ♦

— لست أعرض متاعبي ♦

— هل لك أن تقول لي ما هي متاعبك ؟

— أوه ♦♦ لا شيء ♦♦♦ لا شيء الا المتاعب الناشئة عن رؤيتك

♦♦♦♦ عن رؤيتك في كل يوم من الايام التي يخلقها الله ♦

قال له الشاب الاحمر ذلك وهو يرشقه بنظرة مسمومة ♦

وأضاف :

— يميننا ان نفسي لتمرّض من مجرد النظر اليك ♦ أتفهم ذلك ؟

فرفع شول كتفيه ، وقال :

— هيا اعزف على الناي في الطرقات ، فذلك أنجح لك ♦ اما

هنا فالناس جميعا أهل جد ♦

فسعل الشاب الاحمر ساخرا ، وعاد يقول :

— ليس في وسعك ان تفهم ♦♦ أنت حسبك أن تأكل وأن

تنام وأن ت ♦♦♦

— يا لطيف يا رب ♦♦♦ هل لك أن تعيد ما قلت ؟ ♦♦

— هل تعرف يا عمر ؟ انك أشبه بفروج صغير باضه المعلم •
 كان ماحي بوعنان قد ترك المعمل منذ قليل • وكان عمر يصعد
 الدرج مثقل الذراعين بكعب من الصوف صبغت حديثا ، فهو
 ماض بها الى فسحة قريبة ينشرها فيها لتجف • لقد انقشعت
 السماء قليلا ، فشمس الشتاء تجري كسلى وراء غشاء من غمام
 رقيق • ان حمدوش يتفوه دائما بكلام بذيء كهذا الكلام • فما
 ان سمع الحائكون تلك الالفاظ التي خاطب بها عمر حتى استخفهم
 المرح ، فأخذت قهقهاتهم تتراكض في المعمل •

وقف عمر فقال للاحمر ، وهو يرشقه بنظرة سوداء :

— فروج أملك •

فدهش حمدوش من الالهانة ، وأمطره بوابل من الشتائم •

— لسوف أسحقه لك ، هذا الرأس القدر •• ستري ••

اذهب الآن ، اذهب •••

ولكن عمر رفض أن يمضي • فقال له حمدوش :

— ما الذي يسمرك هناك ؟

فحرك الصبي يده بحركة تحد ، غير أن الفاظا بذئئة تقيأها

الشاب الاحمر لم تلبث ان صبغت وجهه بحمرة قاتمة •

فحدق اليه حمدوش بعينين تشبهان عيني ضبع ، واستغرب مقهقهها ، فأصغى الصبي اى ضحكته مشمئزاً ، ثم خرج يسير في الشارع الضيق •

فلما عاد ، غافله حمدوش فأمسك به من أذنيه ، وجعل يطرق رأسه بقضبان المسددة • حتى اذا أفلت الصبي من بين يديه ، أخذ يرشه بسب من السباب • فاصفر وجه حمدوش ، ورفع قبضتي يديه ، واهال عليه • دافع الصبي عن نفسه ما وسعه ان يدافع ، فكان يضرب بيديه في جميع الجهات على عماية ، يعينه حنق بارد • فاستشاط حمدوش غيظاً من هذه المقاومة ، فما كان منه الا أن لطم الصبي على نقرته لكمة بلغت من القوة ان الصبي جأر حين هوت عليه كما تنجار بهيمة من البهائم •

صاح الحائكون يقولون :

- ما بك يا حمدوش ؟ انك توشك أن تقتله ••• هل تريد ان

تقضي باقي عمرك في السجن ؟

ان عمر لم يذق طعاما في ذلك اليوم • اضطربت عيناه • أحس أنه ينهار • ركبته تشيان وترتعشان • لم يفهم ماذا حدث له • ثم ها هو ذا يهجم على خصمه ، فما هي الا لحظة حتى أخذ الاحمر يموء بصوت أبج :

— أرخ يدك ••• أرخ يدك ••

لقد تشبث الصبي به وضغط على جوزة عنقه بيد كأنها كلابة •
حشرج الاحمر ، وصفق الهواء بيديه ، وهو يتدحرج تحت أحد
الانوال • ظل عمر واقفا ينتظر في وسط المعمل • ثانية ، ثانيتان ،
ثلاث ثوان • نهض حمدوش مشوه الوجه من فرط الحق •

صاح الصبي بكل ما أوتي من قوة :

— قدر ، غدار ، خائن •

فمال حمدوش عليه ، وقرب وجهه من وجهه • ان حدقتيه
تتقدان اتقادا وحشيا • صمد الصبي • وزفر يقول له عند أنفه :

— ابن كلبة ••

فاذا بصفعة حارقة ، معمية ، تسقط على وجهه ، فتطرحة
أرضا • ولكنه سرعان ما نهض من جديد ، فوثب على حمدوش ،
وطوّق بيديه رجليه ، ثم غرس أسنانه في ربلتي ساقيه • أعول
حمدوش من الالم • وتوقع عمر ان يقتله الاحمر •

ولكن شيئا من ذلك لم يحدث • وما وقع ملأ الصبي دهشة •
ذلك ان عكاشة قد أبعد الاحمر بحركة من ساعده ، ودفعه الى
وراء فتقهقر الاحمر حتى اصطدم بالسلم ، فسقط على درجته
الاولى • وانفجر المعمل كله يضحك مقهقه • واستشاط حمدوش
غيظا ، فاحمر وجهه احمرار شديدا ، ووثب نحو عمر • ولكن
عكاشة التقطه من ذراعه • فأمسك الاحمر بقبضة عكاشة يحاول
ان يخلص ذراعه منها ، ولكنه عجز عن فك عقدها • فقال معولا :

— دعني ♦♦

تركه عكاشة فانتصب يقف امامه دون ان يتحرك ، وهو يرتعش صاحب الوجه ، ثم دار على عقيبه ، ونفض الغبار عنه بحركات آلية ، ورتب سترته ، ومضى يجلس الى نوله ♦

* * *

في آخر النهار صحب عكاشة الصبي ، وسارا جنبا الى جنب ♦ كان الفتى يشعر بشيء من الخوف ♦
قال له عكاشة :

— ما حدث حدث ، فلا تتكلمن عنه بعد الآن ♦ ولكن عليك في المستقبل ان تسلك سلوكا حسنا ♦ وعليك خاصة ان تتحاشى المشاجرات ♦

وهمّ عمر ان يحتج قائلا ان الاحمر هو الذي اعتدى عليه ♦ ولكن عكاشة تابع يقول :

— ♦♦♦ والا أدبتك بنفسي ♦ حذار ♦♦

فتأثر الصبي بما كان في نظرة عكاشة من حرارة المودة ، فعدل عن التشكي ♦

وأردف صاحبه يقول :

— دعك من الاحتكاك كثيرا بعمال الكهف والا ندمت ♦

فلم ينطق الصبي بكلمة • حتى اذا قطعنا شوطا كبيرا ، وقف
عكاشة عن السير ، وقال له وهو يضحك انه قد رافقه مسافة
بعيدة ، ولا خطر الآن ان يعترض الاحمر سبيله •

ثم أضاف فجأة :

— لقد كنت في المدرسة ، فلا بد أنك تفهم امورا كثيرة •

قال ذلك وهو يرقب عمر على نحو خاص •

— نعم ••• خسارة ان تعمل في معمل نسيج • مهنتنا هذه
لاقيمة لها ••• انظر الى حالي : هذا كل ما يمكن ان تبلغه أنت
في ذات يوم ، فاذا صرت مثلي بقيت على هذه الحال الى آخر
حياتك • فكر قليلا تفهم عني ما أقول •

قال عكاشة ذلك وابتسم ، ولكن وجهه كان في هذه المرة
مظلما •

— أنظر الى صقالي مثلا • انه لا يكاد يصلح حتى للقيام
بالاعمال التي يقوم بها الصبية ••• هه ؟ ومع ذلك فقد انفق
حياته كلها امام النول • أما أنا فأمل ان أفطس قبل أن أصل
الى الحال التي وصل اليها • عليك ان تتعلم شيئا آخر يا أخي ••
ثم ان كل شيء سيتم صنعه بالآلات عما قريب • بعد عشر سنين
لن يكون هناك حائكون • لسوف ترى في المستقبل ان ما أقوله
لك الآن هو الحق عينه •

وافترقا •

كان الظلام قد خيم • وهذه ريح باردة تهب من الشمال •
غير أن عمر لا يصغي الا الى الفرح الذي يغني فيه كعصفور
مختبئ • ان تحذيرات عكاشة قد مست فكره مسا خفيفا فلم
تخلف فيها أثرا •

وفي الغداة ، اقترب عكاشة منه ، ووضع يده على كتفه ،
قائلا له :

— هل الحال اليوم ، أحسن ؟ هل هدأت ؟

فدمدم عمر بكلام مرتبك ، وهو يضطرب على سرور •

ضحك عكاشة ، وقال :

— طيب طيب ، هيا •••



عمر يعمل • الكهف يضج بهياج سريع يسري بغير كلال في هذا الركام العجيب من الانوال والدواليب والمكاب • عمر يراقب الظلال التي تمغغ وجوه الحائكين • وتمضي الساعات تلو الساعات متشابهة ، كالحة ، تنضح ضجرا لا ينقشع • المكاكيك تفرقع ، والامشاط تلتطم •

لقد ادرك الصبي بعد بضعة أسابيع من الاستتقاع في هذه الحفرة ، ما في حالته الجديدة هذه من جد •

حتى زعيق أمه أصبح لا يشب الا من حين الى حين • صحيح أنها ما تزال تؤنبه ، او تتظاهر بأنها تؤنبه ، غير ان فرحا قويا قد أخذ يملأ جوانب نفسها •

كان عمر يعود الى البيت في كل يوم من أيام السبت حاملا في جيبه أجر الاسبوع ، وهو عشرون فرنكا ، فما يكاد يضعه في كف أمه حتى تأخذ تدعو له بصوت خافت :

— الله يسعدك ، شكرا يا بني ••

هذا عمر يحل الخيوط المتقللة وهو يفكر • فاذا بأغنية نحيلة عذبة تصل الى المسامع من آخر الكهف :

— أو اه يا أمي الحبيبة •

ارتعش عمر كأن الجو قد ازداد بردا على حين فجأة • أن زيش هو الذي كان يرهم بصوت ضعيف • وامتلاً الكهف شيئاً فشيئاً بالصوت البطيء النحيل الذي لا يكاد يكون أقوى من صفير صرّار الليل ••• وتبعه صوت آخر ، ثم تبعته أصوات أخرى ••• ان الغناء يترجح ترجح غمامة في سماء الشتاء • ام يلاحظ زيش ، الذي كان يحاول ان يسكب في نواحه روحه كلها ، ما أيقظ حوله من انتباه • وكان وجهه يبدو ، في بعيد ، ساكناً جامداً كوجه من يُحتضر • لعله كان لا يعرف هو نفسه لماذا أخذ يغني • ثم أخذ يلهث • ان أنفاسه تضعف لحظة بعد لحظة • وتتهد اخيراً على حين فجأة :

— آه ••••

وتوقف عن الغناء ، وأغمض عينيه • خيم الصمت ثقيلاً كالرصاص • غير ان الصبي حاول محاولة أخرى ، في عزم مستميت ، فأخذ الصوت الرخيم يسري من جديد في الظلمة الخائقة التي ترين على الكهف • ولكن الاغنية ما لبثت ان خارت مرة ثانية ، فأمسك الصبي عن الغناء ، ودمدم قائلاً :

— عبث ، لا فائدة •••

صاح شول يخترق الصمت بصوته الفظ :

هيه ••• زيش ••

فأجابه الصبي المغلوب على أمره :
— ماذا ؟

— هل نسكر الليلة ؟

— آه ... أتمنى لو امتلئ بالخمر امتلاء ... امتلاء ...

لم يقل الآخرون شيئا • انهم أطياف خرساء استبد بها
اضطراب شديد •

صاح شول يقول مصطنعا نبرات السكر :

— آي ... هات ... املأ الكأس ...

فأضاف زيش :

— هنا ... في هذا المكان نفسه ... دون ان تتحرك ...

قال ذلك واخذ ينق تقيقا دام مدة طويلة ، وانتهى بتأوه غير

مفهوم :

— آه ... آه ...

قال حمدوش :

— زيش أيضا مريض النفس •

فقال قوطي الامين ناهرا في قسوة :

— لقد أفسدتم أنفسه • هذا هو السبب •

فنظر اليه شول يقيسه من الرأس الى القدمين ، ثم كشر عن

لثتيه الزرقاوين وقال :

— أي اثم اقترفنا ؟ ألا يجوز للمرء ان يمزح بعد الآن ؟

وقال مصطفى رزاق محتجا بصوته الاغن :

— النفس لا يمكن افسادها • كيف يمكن افساد النفس ؟

انها كهذا النور ♦♦♦♦

قال ذلك ورفع نظراته نحو المصاييح المشتعلة المعلقة بأسلاكها •

ثم عاد العمل يجري في صمت • ان كآبة قاتمة قد جعلت
الحائكين ينكبون على أنوالهم كأنهم صم • نظر عمر الى عيني
شول وهو يتسهم في سخر خبيث • فاذا هو يشعر بجميع اثقال
ذلك العنف القلق الذي كان يرين في المعمل تنصب عليه • أحس
أن غولا من الغيلان التي يراها النائم في الكوايبس ينشب في
كتفيه أظفاره الحديدية • وما انقضت بعد ذلك ثانية واحدة الا في
بطء رهيب • ان به رغبة قوية خائقة في ان يصرخ معلنا سخطه
على هذه الحياة التي يعيشها ، وصعدت هذه الرغبة حتى صارت
على حواف شفتيه •

— جاء المعلم يا اولاد ♦♦

ان زيش الذي يترصّد دائما ما يحدث في الخارج هو
الذي صاح تلك الصيحة القوية • وما هي الا لحظة اذا بالمعلم
يظهر في أعلى الدرج فعلا • استمر العمال في عملهم • غير ان
بعضهم قد رفعوا رؤوسهم في تردد ، ثم ما لبثوا ان عادوا يعملون
في نشاط محموم •

سأل ماحي بوغنان بلسان متعثر :

— كيف الهمة يا أولادي ؟ ياللفتية الشجعان •• مرحى ••
ان الانسان ليفرح حين يرى كيف تعملون ••
وأضاف يقول دون ان يتوقع أحد ذلك :

— حقا لا شيء في هذا العالم ولا أحد يستحق أن يحزن المرء
عليه • ما ينبغي للانسان ان يقلق ابدا • كل شيء الى زوال ••••
وحرك ذراعه في الهواء في تراخ • وقال عبارات غامضة
لها مظهر الكلام الفلسفي أو الاخلاقي — لا يدري المرء ما هي —
وظل ينظر أمامه كمن يحاول ان يتذكر أمرا من الامور • ثم هز
يده باشارة مباغتة ، وقال بلهجة قاطعة :

— هيا ••• العمل خير من كل شيء •

ثم اجتاز درجات السلم في وقار وجلال ، وذهب كما أتى :
صلبا ثقيلًا تؤكد كل خطوة من خطواته مهابةً ما ينبغي لأحد أن
يماري فيها •

قال الاحمر ساخرا :

— المعلم شارب قليلا •

فقال شول مزمجرا :

— كفى هراءً •••

الجزء الثاني

— ١ —

ولد الربيع في ليلة • انبثق انبثاقا مفاجئا : سيول من الضياء تتدفق بعد ذلك الظلام الطويل • المدينة تفتح رثيها وقد تخلصت من الثقل الذي كان جائما على صدرها • أوراق الاشجار عادت تثبت على الاغصان السود التي غشيتها رغوة خضراء • والنهار استرد دفئه الجميل • الناس يرفعون انوفهم في الهواء متطلعين الى بشائر الخير في اشراقة الشمس واولى زقزقات العصافير •

وظهر المتسولون في أيام الربيع هذه أعجب وأرهب مما ظهروا قبل ذلك • هم عاشوا حتى الآن ، وكيف ؟ لا يستطيع احد أن يعرف ذلك • انهم يتسكعون في الشوارع ، وقد اكتسبت وجوههم هيئة من يتذكر شيئا نسيه منذ زمان بعيد • يسرون في حذر ، لا ينظرون الى أحد ، يمسون الناس دون ان يروههم • وحدث في الكهف شيء من الفتور • اضطرب النشاط ، واضطربت الاصوات • الحائكون ما يزالون يعملون على أنوالهم في همة ، غير ان بعضهم أخذوا ، على حين فجأة ، يغنون بصوت جهير • لقد تسلت الى الجو المحصور الخانق نشوة صعدت الى رؤوس العمال •

ما يكاد يتنفس الصبح حتى يكون عمر قد حمل الى المعمل
الصوف المشتري من سوق الغزل • ان سعادة هذه الاسحار
الندية المشرفة الباهرة الطراوة تخزه وخزا كأنها الشوك •

فمتى وصل الى المعمل بدأ عمله في تكييب الغزل ، ثم مضى
يشترى للعمال ما يطلبون اليه شراء • ان نفسه الآن أقل ظلمة
وحزنا • انه يصغي من بعيد الى الاحاديث الفاترة العابسة التي
تدور بين العمال ، وهو فيما يشبه الحذر • وهو يسعى بعد ذلك
الى بيت ماحي بوغان في «باب زير» ، يأخذ قفة ويتلقى أوامره •
انه مكلف بشراء ما يأمره المعلم بشرائه من السوق لبيته • غير
انه لم يقيم يوما بهذه المهمة على النحو الذي يرضي رغبات السيدة
زوجة بوغان ، فهو ما ينفك يصغي الى انتقاداتها مطرقا في
خشوع •

ومن اجل ان يساعد العجوز صقالي الذي اصبحت الشيخوخة
تعجزه في بعض الايام عن القيام بأي عمل من الاعمال ، كان يلف
سداة «الطراوة» ، الرقيقة كناعم الشعر • وبعد ذلك بقليل
أصبح يحمل الصوف الى المصبغة ، ويعود به الى المعمل فور
اخرجه من مرجله الاسود •

على أنه رغم نهوضه بهذه السخر التي لا تعد ولا تحصى ،
لم يكن ليرضي أحدا •

فلا بد ان يلاحقه احد دائما باهاناته وتوبيخه • وقد الف هو
ان يشتم حتى اصبح لا يعبأ بالشتم • غير ان الامر الذي لا يريده

هو اللطمت والمكاكيك التي تتقذف الى رأسه • وكان الحائكون يرشقونه ببصاقهم متى اتفق ان جاءت احدى مواسير الغزل التي كبتها متشرجة الخيوط •

كذلك كانت الحال •• انهم يفرغون على الصبية بعض ما تراكم في نفوسهم من حق • انهم لا يكفون عن سبهم •

هذا عمر يحل خيوطا متفتلة وهو يفكر • فاذا حمدوش يلاحظ صمته ، فيقول له ساخرا :

— هل غرقت سفنك المحملة بالزعفران ؟

فما يجيبه الصبي ، وانما تزيده كلماته اقتناعا بأن الاحمر غبي غباوة لا براء منها •

ان عمر لا يشعر بالصدقة الا نحو عكاشة الصموت • ان عكاشة يوحى اليه بالثقة • وهو يذهب الى لقائه كل يوم من أيام الاحد في ذلك المطعم الواقع في آخر شارع صغير مزدحم بالناس في المدينة الواطئة ، فهناك كان يحلو للحائك أن يحتسي الشاي •

لم يحتمل حمدوش هذا الصمت العنيد في عمر ، فصاح يقول :

— أمر هذا الحيوان الكبير امر عجيب •• فهو ما ينفك يجتر أفكارا وراء رأسه •••

وبعد لحظة ضرب الاحمر الصبي الاشوه زيش ضربة قوية ، بسبب تافه هو ان الصبي تأخر في العودة بالماء الذي ذهب يملأ

به القادوس من العين التي بالحي • لقد ظمىء حمدوش فلما اراد ان يشرب لم يجد هذا القادوس الذي كان الحائكون يطفئون بمائه ظمأهم •

لاذ زيش بركن وراء الصندوق قرب عمر ، وأخذ يشق • انه منكمش على نفسه ، ترتعش اعضاؤه كلها ارتعاشا شديدا ، وهو يشد على جفنيه شدا مؤلما • حاول عمر ان يواسيه • فسمعه يدمدم بصوت تقطعه الشهقات •

— سوف أقتله • فليتنظر • • لأقذفن وجهه بكتلة الحديد التي وزنها رطل • •

سأله عمر لماذا يدع لغيره أن يضربه • فلم يجبه الجني الصغير بشيء ، واكتفى بان هز كتفيه •

ان عمر يحاذر هذا الاحمر الذي كان ميله الى الشر شيء غريب دائما •

ولم ينقض ربع ساعة الا وكان صوت زيش یرن في الكهف فرحا مرحا • ثم اذا هو يأخذ يقرع الارض بقدميه راقصا ، وصيحات العمال تستحثة •

الايام تنقضي وعمر ينضج • انه الآن لا يقل عن غيره حذقا ولا حدة في ادراك الامور ، لقد أكسبه عمله في الورشة خبرة كبيرة • أصبحت المعاملة السيئة لا تترك في نفسه مثل الاثر الذي كانت تتركه أول عهده بالعمل في المعمل • لقد تعلم كيف يحمي نفسه •

عند عين الماء التي تسمى « عين ليون » ، لاحظ عمر حشدا
كثيفا من الناس يملأ ميدان « بليو » • كان الصبي عائدا من
المعمل عن طريق ممر « سيلاق » ، وشغل من الصوف في مثل
حجمه تكسوه من قمة الرأس الى أخمص القدمين بفروة كبيرة
تتقاطر منها ألوان حادة فاقعة ، احمر وأصفر وأخضر وأزرق •••
اقترب من الحشد ، فصاح به ثقيل يقول :

— اركض باصبعتك يا صبي •

فأصم عمر أذنيه عن سماع كلامه ، فأغضب الرجل أن الصبي
لم يكثرث به ، فشتمه وقال :

— ألا ترى أنك ترش الناس جميعا ؟

وظل عمر صامتا لا يجيب • وساعدته الشلل المبللة في ان
يشق لنفسه طريقا بين الحشد • كان الناس يصرخون مستكربين ،
ولكنهم يفسحون له الطريق •

ان في وجوه المستطلعين من هذا الحشد دهشةً لمنظر غير
مألوف • وتطلع عمر فلم يلمح الا فئة بلهاء من اولئك الحفاة الذين
يسكنون المدينة منذ مدة قصيرة • لقد نظمت السلطات حملة

ليجمع هؤلاء المتسولين • وكان الناس يقول بعضهم لبعض
متهامسين ان سلسلة من التدابير قد اتخذت للوصول الى هذه
النتيجة • ان رجال الشرطة تخفر الآن هذه الاشباح التي تن •
— كانت المدينة هادئة ، وكانت مؤدبة الى أبعد حدود التأديب
فاذا بهؤلاء الافراد يعكرون صفوها •

هذا ما قاله تاجر متدثر برداء من جوخ ، مستنكرا في وقار
ورصانة •

فدمدم مازح يعقب على كلامه بقوله :

— أحالوها الى خان •

فمنعج التاجر :

— بل احالوها الى ماهو أسوأ من الخان •

ثم أضاف يستشهد جيرانه الذين كانوا يقفون على مقربة منه •
— ما تراكهم في مكان لا عمل لهم فيه ؟ ألم يخلقوا على هذه
الارض — وهم أناس لا ينفعون أنفسهم ولا ينفعون غيرهم — الا
ليزعجوا اولئك الذين يريدون ان يعيشوا حياة كريمة ؟

وفي أثناء ذلك ظهر احد اعضاء اللجنة الخاصة التي شكلتها
حكومة فيشي ، فاذا بالبله يتدافعون حتى ليكاد يسحق بعضهم
بعضا • واراد الرجل في أول الامر ان يعرف من أين كان يخرج
هؤلاء الشحاذون • ولكن الامور لم تلبث ان ظهرت أعقد مما
كان يمكن تصوره • لم يتصد احد من الناس لايضاح هذا اللغز •

وسئل المتسولون ان يبرز كل منهم أوراقه ، فاتضح انه ليس بينهم احد يحمل اوراقا ، لا ولا فهم أحد منهم ما معنى ذلك • وتقرر عندئذ استجوابهم ، فأجابوا جميعا بأنهم غير مستعدين لان يروا مرة اخرى الجحيم الذي غادروه •

— سنموت هنا •

لماذا يعلنون هذا القرار المشؤوم ؟ لم يخطر ببال عضو اللجنة أن يسأل عن هذا الامر ، وقالوا يوضحون : انهم على كل حال يجهلون من أين أتوا • ولم يمكن استدراجهم الى مزيد من الكلام •

فزاد ذلك في اضطرام حلق ممثل السلطة ، على اضطرامه من قبل • ان هذا الكهل ، المخلوق الذقن منذ قليل ، المتزين عنقه برباط جميل ، شديد الاحتفال بوقاره • كان واضحا انه لم يخلق للاهتمام بمثل هذه الامور • انه لا يفهمها • ولم يعرف بهم يبدأ ، حين رأى الناس ينتبهون اليه ذلك الانتباه الشديد •

وما لبث ان اعلن في صلابة وحزم انه سيأمر بارجاعهم ••• نعم ، سوف يطهر المدينة منهم ••• لا بد من استئصال هذه الحشرات ••• ان المرء يحس لدى كل خطوة يخطوها في المدينة انه يتعرض لاشد الاخطار • هل ينبغي لاحدنا ان يذبح امام باب منزله ، أن يشهد نهب بيته ، أن يرى امرأته •••••

— احم •••

كذلك صوّت أحدهم ، فسمع جميع الناس هذه السعلة

الجريئة ، وما كان اشد دهشتهم حين سمعوا ذلك الرجل الذي قال « احم » ، يضيف قوله :

— هؤلاء ليسوا حشرات • ان الحشرات التي انقضت على بلادنا هي التي صيرت اخوتنا الى هذه الحال •

فلما سمع عضو اللجنة المكلف بالشؤون العامة هذا الكلام احتاج احتياجا شديدا ، واخذ يضطرب مرتعشا • قال يسأل متخطيا بنظره مَنْ حوله :

— من تفوه بهذه الكلمات ؟

فقامت في الحشد حركات مضطربة ، وانطلقت اصوات • ثم لم يلبث الصمت أن خيم • لم يعرف أحد من ذا الذي اقحم نفسه في الامر هذا الاقحام الخطر •

ولم يخامر احدا شك في أنه قال هذا الكلام ثم انسل واختفى • ونهد رجال الشرطة يفرقون الحشد • غير ان الناس لم يلبثوا ان تجمهروا في بعيد جماعات جماعات ، وعادت اللسان تتحرك وقد انحلت عقدها •

وأقبل على المثرثرين شيخ طويل يسير بخطى بطيئة •

— ما الذي تعرفونه عما وقع لهم ؟

قال الشيخ ذلك ، وهو يصوب لحيته التي بلون الزعفران الى جهة الشحاذين الذين لم يتحركوا من مكانهم •

— ماذا تعرفون عن الاسباب التي انتزعتهم من الركن الذي كانوا يعيشون فيه من الارض ؟ أيها المسلمون ، لا تتكلموا في طيش اذا كنتم ...

وهنا انبرى مسخ قصير تتدلى عليه مريلة حذاء ، فقال يقاطع الشيخ ويمنعه من اتمام جملته :

— يالهذا العصر الذي نعيش فيه !

وقال رجل حكيم :

— صدقوني .. ان تعاستنا ليست بنت اليوم ، وانما هي ترجع الى عهد بعيد . فيم تقلق اذن ؟

— ولكن لهذه الازمان أثرا فيها .

— هبوا ذلك ... ان هذه الازمان تكشف عن الجرح ... ولكن الجرح ينزف من عشرات وعشرات السنين . كل ما هنالك أننا اليوم نرى الجرح رؤية أوضح .

صاح الحذاء القصير يقول مرة أخرى في دهشة :

— لا أستطيع أن أتصور ان شعبنا تحمّل آلاما كهذه الآلام .

فقال الحكيم مؤكدا :

— انه يتحملها .

مضى عمر . ان هذه الامور ليست بنت اليوم . هيهات أن تكون بنت اليوم .

الى أين اقتيد هؤلاء المتسولون بعد ان اخذوا من « بليق » ؟
لقد القى عمر هذا السؤال على نفسه مرارا • والاشخاص الذين
شهدوا هذا الترحيل ظلوا بعد ذلك في هم • ان رغبة عمياء في
انزال العقوبات كانت ما تنفك تزداد ضراما في نفوس الاوربيين •
كأن النوع الانساني لبث يجهل الشر الى ذلك الحين ، ثم اذا
بالحياة تمتلئ فجأة بالمناظر الكريهة والحوادث المضطربة •

كان ينبغي قبل كل شيء الرجوع الى مصدر هذا التكاثر
الهائل في المتشردين • انهم كلما دفعوا عن المدينة ازدادوا تهاوتا
عليها • ذلك ما كان يتكرر كل يوم • والحاذق الحاذق من يحزر ،
على كل حال ، هل الذين يهبطون المدينة هم أولئك الذين
أخرجوا منها فغابوا عنها غيبة قصيرة ثم لم يلبثوا ان فروا عائدين ،
أم أنهم وافدون جدد ، والحاذق الحاذق من يحزر أيضا هل
اقامتهم ههنا هي خاتمة مطافهم ، أم أنهم لا يمكثون في المدينة
الا الى حين ثم يولون وجوههم شطر أمكنة أخرى فعل الطيور
المهاجرة تدفعهم غريزة خفية • ان المرء لا يستطيع ان يعرف شيئا
عن ذلك • وهو فوق هذا كله لا يستطيع ان يميز بعضهم عن
بعض • انهم جميعا سواء : وجوههم المنكسرة المتنفشة ، الغبار

الاسمر الذي يكسوههم ، الاسمال الرثة التي يلبسونها ، النظرات
المسدودة التي يجيلونها ، الاجسام المتهالكة التي يجرونها جراً ••
وكانوا يسخرون بعالم النظام والاغنياء الذي يجاورونه •

ما كانوا يرون أن يفعلوه هو أن يعسكروا صفاً على حافة
الطريق ، وقد اداروا ظهورهم للمارة •

حتى الفنادق الموسرة أصبحت لا تستاء من هذه الفوضى ،
وحتى المباني القاسية التي تشغلها اجهزة الحكومة أصبحت لا تضيق
بهذه الاهانة • ولكن سكان تلمسان كانوا يرصدون ، وهم
يشعرون بالمذلة ، آثار الخزي هذه ، التي اختبأت طويلاً ثم
اختارت هذه الساعة لتكشف لهم عن وجهها القاسي •

وكانت قد هاجرت من واجهات المخازن ، البضائع الثمينة ،
وصناديق الحلوى الفاخرة، وعلب الاطعمة المحفوظة المشهية، والملابس
الانيقة ، والحلي الجميلة ، والساعات الدقيقة ، وسائر ألوان
الرفاه ••• هاجرت من واجهات المخازن ، ولم تحلّ محلها ، اذا
امكن ان يحل محلها شيء ، الا سلع رديئة ، الا بدائل كما كان
يقال • فكانت هذه السلع تمكث وراء الزجاج بعض الوقت ،
فتبتهت ، ثم ما تلبث ان تدخل في ذلك الاغبرار العام ، في صحبة
صورة ماريشال عجوز •

وقامت البلدية ببضع محاولات اخيرة يائسة • ولكن موجة
البؤس الانساني لم تنحسر ، بل امتدت شيئاً فشيئاً حتى غطت كل
الارض التي فقدتها • وكلما قامت حملة جديدة ، أسرع أسراب

من المتفرجين تتجمهر ، فاذا بذلك الصوت يعود يردد في وسط الحشد صائحا :

— هؤلاء الناس ليسوا حشرات • انما الحشرات من صيروهم الى هذه الحال ، وهم يعيشون على أجسامنا •

كانت هذه العبارات تتردد هي نفسها كلمة كلمة على وجه التقريب ، وتنتهي دائما بصيحة عالية تقول :

— أعطوهم طعاما ، ذلك أولى بكم •

وظلت تلك الشخصية الخفية التي تلقي هذا الاتهام مجهولة لم تعرف • ولكن سرعان ما الف المرتادون لهجتها القروية ، القاسية الساخرة ، فاقنادهم رجال الشرطة غير مرة ، ولكنهم لم يظفروا منهم بشيء ألا ، لولا تواطؤ الناس ، لقبض على الرجل الجريء منذ زمان بعيد •

واصبحت السلطات منذ مدة لا تهتم بان تنسب هذا السخر الى وجه بعينه •

— أعطوهم طعاما ! ولكنكم لن تقدروا على ذلك !

هذا ما كان يسمع •

والبله المتجمهرون حول « عين ليون » يرتعشون • انهم غير حاققين • ان أخوة غامضة تشد القلوب الى القلوب •

أتمت السلطات شحن عدد من سيارات النقل بأواخر فصائل هؤلاء المتسولين • فالمدينة الآن حرة • انها تتنفس •

استردت الشوارع وجهها الجميل ، كما كانت في الماضي ، وهو ماض يرجع عهده الى أمس القريب ، ولكنه كان قد أمحى في بلبلة هذه الازمان المضطربة • الناس يتجولون الآن في المدينة دون أن يصطدموا بالنفايات • غير أن حجابا من حداد حزين قد ألقته على المدينة تلك الجماعات الساعبة الوضرة التي غابت الآن عن الانظار ولكن ذكرها ما تزال ماثلة في الاذهان •

الى أين ذهبت سيارات النقل التي شحنوها بهم ؟ ماذا صنعوا بهؤلاء الرجال والنساء والاطفال ؟ آه ... كم تبدو الشوارع أنيقة ؟

وعلى أن الجو لم يدفأ الا قليلا فان البرد أخذ يخفي اظافره على هون من الاشعة المتلاثلة • ثم غمق لون السماء وقسا ، وما جاءت الظهيرة الا والشمس قد كثفت كما يكثف المرب ، والتهب الهواء •

وظهروا مرة ثانية • ظهروا في هذه المرة ظهورا لم يتوقعه أحد ، وعددهم الآن اكبر من عددهم في اليوم الاول • تساءل الناس

عن هذه المخلوقات ما هي ؟ قيل لهم انهم يجيئون من الداخل ،
من أمكنة أبعد من البلاد المحيطة بالمدينة ، وان عددا كبيرا منهم
قد قطع عشرات الفراسخ • انهم يتهافتون على المدينة من أراضي
الجنوب • البلاد كلها تهتز اذن وتضطرب • أنى لسكان المدينة
أن يعرفوا ذلك وهم يعيشون بمدينتهم في عزلة كأنها عزلة الرهبان
في الدير ؟

ثم ان الناس ما يزالون يكتفون بالمضي الى شؤونهم الخاصة،
فان الهموم لا تعوزهم ، ولكل يوم من الايام نصيبه من هذه
الهموم ، ان لهم أعباء تشغلهم عما عداها • ومع ذلك أغرقت هذه
الاحداث اكثرهم في وجوم عميق • فما ان يذهب أصحاب الحرف
الى دكاكينهم عند مطلع الصبح ، وما ان يفتح الباعة أبواب
حوائيتهم ، وما ان تنتشر جمهرة العمال في المدينة ، حتى تكون
الشوارع المزدهمة قد أوشكت أن تسدها جموع هؤلاء المتسولين
سدا • وكانوا يزدادون في كل ليلة عددا •

الحق أن منظرهم خشن مفرط في الخشونة • كان كثير من
الناس اذا لقوهم أمامهم لأول مرة ، لم يروا فيهم ما يجذبهم
اليهم ، ونفروا من خشوتهم • وكان بعض الناس يشيحون
بوجوهم عنهم مروعين وهم يقولون : « لست أعرف نفسي في
هؤلاء » •

الملامح الغائرة ، والعظام الناتئة ، واللحي الشعثاء ، ذلك كله
ليس يلفت النظر كثيرا في هؤلاء الصعاليك : ان هذه الرؤوس

التي كأنها رؤوس خراف ، شائعة في الريف • وأنهم صامتون لا يتكلمون ، ساكنون لا يتحركون الا قليلا ، فذلك معروف في ضعاف العقول • غير ان هناك شيئا واحدا يخطف البصر فيهم : هذه الاعين الثابتة المسحورة •

ورتبوا امورهم (مرة أخرى) من أجل ان يعسكروا في الطريق العام • كان الاورييون ، اذا صادفوههم ، يظهرون الامتعاض والاشمئزاز • فكان عمر يشعر من ذلك باستياء : انه يحس ، شاء أم أبى ، أن هؤلاء الحفاة منه وأنه منهم •

ودَّ عمر لو يعرف كيف كانوا يستطيعون ان ينتشروا في كل مكان • انهم كلما أبعدوا وكلما طردوا عادوا وقد ازدادوا عددا حتى أن السلطات نفسها قد دب اليها اليأس •

اما عن التحدث اليهم ، فان المرء ليراهن انهم يتكلمون لغة أخرى • • ثم انهم لا يظهرون اية حاجة الى عقد أية صلة بالمدينة • كان يبدو عليهم ان مشاغل أخرى تملأ رؤوسهم ، وتضعهم في خارج هذا العالم • على أن عددا كبيرا من السكان اصبحوا يعطفون عليهم بعد تفكير ، وأصبح الناس لا يستأوون منهم رغم أن مظهرهم المتجهم لا يشجع على التودد اليهم والعطف عليهم • وكان بعض الناس اذا رأوهم جالسين جنبا الى جنب ، آباء وأمهات وأبناء ، وهم يقضون كسرة من الخبز قاسية كأنها الحصى ، يذرفون عليهم دموعا من شفقة •

ولئن كانت جموعهم ما تنفك في ازدياد ، فانهم لا يصبحون من

ذلك أشد جراحة ولا أكثر ثقة بأنفسهم • وكانوا يمضون باحثين
عن أمكنة جديدة في غير انقطاع ، لا يبدو عليهم انهم سيعودون
أدراجهم الى حيث كانوا •• ولكن •• ولكن أكانوا يتخذون
المدينة ملجأ لولا ان مكنتهم فيها الى حين ؟

وما هي الا فترة قصيرة حتى اصبحت لا ترى أسرة من الاسر ،
مهما تكن فقيرة ، الا وتقدم اليهم شيئا من طعام • صحيح ان
ما يقدم اليهم لا يزيد على كسرة رقيقة من خبز ، ولكن هذه
الكسرة الرقيقة من الخبز كانت تقدم اليهم على كل حال • أضف
الى ذلك ان شعورا بالتضامن قد أخذ يدفع نحوهم كل فرد من
الافراد •

وكان الاوريون بطبيعتهم لا يمارسون الصدقة ، لذلك كان
هؤلاء المتسولون لا يذهبون الى بيوتهم مستعطين • ان الاحياء
التي يسكنها أناس من أصحاب الحرف والعمال والباعة المتجولين
وغيرهم من فقراء الناس ، هي التي كانت من بين سائر الاحياء
تهب الى التخفيف عنهم • كانت أبواب البيوت التي لا توصد ابدا
تستقبل منهم مواكب لا تنقطع •

وفي جوف الليل ، بينما الناس نائمون ، كانت ترتفع في بعض
الاحيان على حين فجأة شكاة اليمه • وتظل الشكاة تترنح الى غير
نهاية في خلال الشوارع الصغيرة المظلمة ، تتلمس طريقها من
وراء الجدران ، الى قلب غاف من قلوب البشر •

حتى دار سبيطار اصبحت منذ ذلك الحين تجد السبيل الى
مساعدة هؤلاء الاقرباء الجدد الذين اتت بهم النكبة •

كانت عيني تقول :

— هؤلاء أخوتنا دما ، وضيوف ارسلهم الله الينا ، فأهلا بهم وسهلا • ولسوف نستقبلهم ولو لم يكن في بيتنا ما تقدمه اليهم غير الماء ، وسيفهمون ان بنا من الفقر والعوز مثل الذي بهم تقريبا • مايزال في هذا العالم رحمة • لن يقال اتنا طردنا اخوتنا لاننا نملك مأوى ولا يملكون ••

والحق أن حياة دار سيطار لم تكن بالحياة الرخية ، حتى ان أهلها كانوا يطلقون عليها اسم : اللعينة ، ومع ذلك كانوا يرونها على علاقتها ، أهلا لان يتعلقوا بها ، وان يساعدوا غيرهم على ان يحيا •

وكثر عدد الموتى في أثناء ذلك • ما أكثر الفقراء المساكين الذين كان يطلع عليهم الصباح وقد لفظوا أنفاسهم الاخيرة دونما جلبة !

وما اكثر الاحياء الذين كانت وجوههم الملطخة بالوحل ، وشفاهم المضمومة ، تسود اسودادا غريبا ! • وهذا بعضهم يزحف زحفا بطيئا الى مخابىء مجهولة ، ثم يختفي عن الانظار ، فما يراه بعد ذلك أحد •

كان هؤلاء الناس يستأذنون العالم بالانصراف ، في تكتم لا نظير له ، حتى لكانهم يعتذرون عن ان عليهم ان يموتوا • كانوا يموتون •• فيفحصهم طبيب البلدية الشرعي ، فيشهد بأنهم ماتوا •

لو رأيته يدلف الى الكهف لقلت انه سقط اليه سقوطا كحجر ،
ولم يدخل فيه دخولا • هكذا هبط الى الكهف ومضى يجثم قرب
صقالي • ان أنفاسه تهدر • وخيم صمت كبير • انه واحد من
اولئك المتشردين البؤساء الذي يملأون رحاب المدينة • ألقى على
الحائكين نظرات كأنها أسنان المخارز ، وكانت تحيط بوجهه هالات
من ظلال • تذكر عمر المتسول الذي مد اليه خبزه في ذات صباح
وهو آت الى المعمل • ان له هذا الوجه القاسي نفسه ، وهذه
الliche الشعثاء نفسها في الخدين الغائرين •

قال الرجل بعد لحظة :

— اسمي محمد عود الشيخ • أنا مزارع من بلدة بني بوبلان
(قال ذلك وهو يشير بيده الى جهة الغرب) • لم يبق لي شيء ،
فقدت كل شيء ، كل شيء : أرضي ، وامراتي ، وأولادي •••
أحالي رجال القانون بهيمة ضالة •

كان صوته هادئا ، فاترا • وكان يتأمل الجدار المتقشر الكلس
أمامه • كانت النافذة العالية تبث نورا مضطربا على جسمه
الغاطس في ثياجا جلبابه الخشنة • وصمت • وصعد الصمت من
تحت الارض •

راح عمر يستعرض ذكرياته • بني بوبلان • يا للأيام الجميلة
التي تجري هنالك هادئة على تآرجحات الضياء ••

ولكن اللهجة الحجيبة التي يتكلم بها المتشرد لم تلبث أن
أخرجته من أحلامه :

— الله يحميكم •••

قال المتشرد ذلك ولم يصف اليه كلمة واحدة • والحائكون
قد جمدت عليه أبصارهم يرقبونه صامتين •

ثم اذا بأصوات ضخمة يعلو صياحها عند مدخل المعمل ، واذا
برجال من الشرطة يهبطون درجات السلم مسرعين ، وقد أخذت
أقدامهم المثقلة بنعالهم ذات المسامير تتدحرج على الدرجان
تدحرجا • ابتلعتهم ظلمة الكهف ، ولبثوا لحظات لا يعرفون الى
أين يتجهون ، وعيل صبرهم اخيرا فصاحوا يسألون الحائكين :

— هيه ••• أنتم • اتنا نبحت عن شخص هارب ، أفليس هو

هنا ؟

ولكنهم كانوا قد لاحظوا الهارب متجمعا على نفسه في ركنه •
فهمجوا عليه ، وانهضوه من ذراعيه ، وجروه • استسلم الرجل
لهم • غير أنه حين صار من السلم في منتصفه وقد أحدق به
رجال الشرطة ، التفت نحو العمال ، فألقى عليهم نظرة أخيرة •
كانت نظرتة غارقة في حزن قاتل ، وقد غارت عيناه •

لهم ينطق أحد من الحائكين بحرف • وأحس عمر فجأة كأن
حبلا ينعقد على عنقه ويخنقه • تساءل : لماذا ؟

* * *

قال شول من بين لثتيه :

— كيف كانوا يستطيعون ان يعيشوا من الارض ثم أصبحوا
اليوم لا يستطيعون ذلك ؟ هل رقعة الارض ضاقت ؟

فأجاب الامين مدمدا وهو لا يريد ان يتجه بالكلام الى شول
بالذات :

— من رأى حالتهم ، من رأى حالتهم حق الرؤية ، لا يرضى
لنفسه أن يتكلم في حقهم كيفما اتفق

— اعلم ، اذا شئت ان تعلم ، ان البشر هم الذين تكاثر
عددهم • هل كان في الماضي مثل هذا العدد الكبير من الفلاحين ؟
أبدا

قال عكاشة :

— لماذا لا تذكر الاراضي التي سُرقت منهم ؟

— لو عرفوا كيف يدافعون عن أراضيهم ، لما استطاع أحد أن
يأخذ منهم شيئا • ان الله قد أربى عددنا وأضل عقولنا • أنظر كيف
يزداد انتشارهم في شوارعنا ؟ ما عساكم تقولون في هذا ؟
حماكم الله •

— سيأتي الاوان ...

— أي أوان ؟ ألم تسمع بالقول المأثور : لو كان يباع ما رموه ؟
كذلك شأن هؤلاء ... فليأت الاوان .. وسرى ♦

فتتحنج حمدوش ، ماذا عنقه ، مائلا ب صدره الى أمام ، وقال :
— المسألة ليست هذه ♦ لماذا لا تتكلمون عنا ؟ اننا لا نريد ان
نسبب لانفسنا المتاعب ، وخاصة من اجل فلاح ... ما شأننا نحن
به ؟ ان الله هو الذي يُحق الحق ♦

قال ذلك وتغضنت زاويتا عينيه ، وانشمرت شفقتاه ♦

— من ذا الذي يجرؤ أن يقول اننا جبناء ؟ من ذا الذي كان
يمكن ان يفعل غير ما فعلنا ؟ من الذي يستطيع ان يساعد رجلا
تطارده الشرطة أيها الاخوان ؟ لا أحد ♦ والا كان يعرض نفسه
لخطر كبير ... والا كان مجنونا ♦ كل ما هنالك ان الرجل قد
أخطأ صنعا حين لجأ الى هذا المكان ♦ لقد كان يمكن أن نفعل
شيئا ما ، ولكن .. ♦

كانت كل كلمة من كلماته أشبه بحجر يرشق بها رفاقه ♦ وفجأة
أخذ يضحك ضحكة طويلة مضت تصطدم بعتبة الكهف وتترجع
بين جدراناه ♦

— ماذا تقول ؟ لم تقل شيئا ؟ تخشى السوط ؟ فهمت ♦ اننا
راضون عن مصيرنا ، وهذا المصير أشبه بصخرة مربوطة بأعناقنا ♦

قال حمزة :

سوف يهدّم هؤلاء الرجال بلادنا ويعيدون بناءها من جديد •
فقهه الاحمر قهقهة قوية •

— ونحن ، ما الذي سنعمله ؟

تابع حمزة يقول :

— البلاد في مخاض هادىء • والبلاد هي هم • لقد أخذوا
يسيرون ، فالبلاد هي التي يسيرهم تسير •

قال عكاشة متمتما :

— هم جزء منا •

وأظلم وجهه الذي تغطيه لحيته الملتهمة السوداء •

وعاد حمدوش يسأل :

— ونحن ما الذي سنعمله ؟ نحن أناس أقرب الى الغلظة ،
فلعل من الاحسان الينا ان يصار بنا الى الزوال •••

قال شول منكرا :

— هؤلاء الناس لا يشبهون أحدا •

وتثأب تثأوبا طويلا ، ثم عاد وجهه فصار من حجر ، وجمدت
عيناه فكأنهما من زجاج •

غضب عكاشة :

— اننا لا نعرف شيئاً عما عانوا ، ولعلنا لن نعرف عن ذلك شيئاً في يوم من الايام • انهم يتوافدون من اراض اصابتها اللعنة •

عاد شول يقول في تناقل :

— انظروا كيف يختالون في المدينة ، وينامون أينما اتفق ،
ويزحمون الشوارع •

— كأن اوروييا هو الذي يقول هذا الكلام !

— لماذا ؟ أي ضير في أن تقول هذا الكلام ؟ اعترف أنهم قد
ألفوا ان يعيشوا كما تعيش البهائم • والاوربيون حين طهروا منهم
المدينة عدة مرات لم يفعلوا الا ما كان يجب أن يفعل • غير أن
أصحابنا هؤلاء جنس من البشر لا يقدر عليهم شيء ولا يقدر
عليهم أحد ••• لا يقدر عليهم الا الذي خلقهم •• اذا قدر •

ثم أضاف شول بعد لحظة من تفكير يقول :

— اني لاتساءل ما الذي كان يمكن ان نصير اليه لولا ان
عصا السلطة الفرنسية تهتز فوق رؤوسنا • اني لالقي على نفسي

هذا السؤال حقا ... لولا هذه العصا ، لاكل بعضنا بعضا ،
ما في ذلك ريب !

قال ذلك ، وسعل ينظف حلقه ، وبصق ، وأضاف :

— اننا شر من الذئاب ..

فما كان من حمدوش الا أن رشقه بالفاظ فاحشة ، وقال :

— ليس مؤكدا ان لك تحت سروالك مايرهن على أنك رجل .

فرد شول بحركة بذئنة ، فضج عدد من العمال يضحكون
ضحكا صاخبا بينما اخذ آخرون يدمدمون متدمرين .

فكر عمر في جميع اولئك المتسولين الذين يطوفون بالمدينة ،
بؤساء في عزلتهم هذا البؤس كله . فهدرت في نفسه حركة من
تمرد وحنق على رفاقه في المعمل . انه يود لو يصفع بقبضته هذه
الوجوه التي تكشر ساخرة في عتمة الكهف . وأحس بظماً شديداً
الى الهواء الطلق . واستمر الحائكون ينقض بعضهم على بعض
وهم يوشكون ان يتناهشوا تناهش الكلاب المسعورة .

قال الامين متمتما في لحيته :

— يجب أن يعيش بعضنا لبعض ، فيكلأنا الله بعنايته .

وازداد وجه عكاشة اظلاما ، ثم لم يحفل بالحديث الذي يدور .
كان صوته ، في الكلمات الاخيرة التي نطق بها ، قد تحجب فجأة
حتى لكأن الكلام لا يسعفه . وقام بحركة يابسة عصبية . وكان
عمر يراقب عينيه وهما تتقدان قاسيتين .

قال مولاي بو أنور يئن بصوته النحيل الرتيب :

— علام المناقشة في هذه الامور ؟

ثم أخذ يسعل ، وصعدت الدموع الى عينيه ، وأخذت تتدحرج على وجهه الذي يشبه ان يكون من شحم زنج ، دون ان يبدو عليه أنه يشعر بذلك •

قال حمدوش وهو يهز رأسه :

— اسمع • اتنا تتناقش في هذه الامور لاننا ••• في أي أمر آخر تريد ان نتحدث ؟

وصمت • ثم نظر الى مولاي بو أنور نظرة ليست معهودة فيه ، لقد كان في هذه المرة جادا واجما •

ازداد سعال مولاي عنادا • كان الحائك قد بلغ من انحنائه على نوله ان رأسه يلامس الاسطوانة •

قال له الاحمر في رفق :

— حقا ! ألا انك لعاقل حكيم • علام نتحدث في هذه الامور ؟



— حين كنت في مثل سنك ...

قال عكاشة هذا ولم يزد • ثم ربت على كتف عمر وقال :

— آه ... دعنا من هذا •

هذه اول مرة يجيء فيها عمر الى هذا المقهى • كان سروره بوجوده في هذا المكان كسروره بصحبة عكاشة •

ان عمر صامت ينظر فيما حوله ، وهو يشم رائحة الماء الرطبة في قادوس عنق • كان ينتظر ما سيقوله عكاشة • ولكن عكاشة يسأله :

— قهوة أم شاي ؟

فتردد الصبي ثم أجاب :

— شاي ؟

فصاح عكاشة :

— واحد قهوة ، وواحد شاي ، يا معلم •

كان صاحب المقهى يعمل وراء بسطة صغيرة ، في ظل تتلأأ فيه أواني الخزف البيضاء ذات الازهار الزرقاء ، المصفوفة في

« الوجدان » ، فلم يقل شيئاً ، ولكنه سرعان ما أخذ يتناول من بين أدواته ما هو في حاجة إليه .

كان عكاشة جالسا قبالة عمر ، مديرا ظهره للشارع . ولم يكن في المقهى كثير من الناس .

جاء المعلم بالقهوة والشاي .

ان الجدران المتدخنة الحالكة السواد تلقي في القاعة ظلا هادئا مريحا . وكان الزبائن الاخر لا يتبادلون الا كلمات قليلة من حين الى حين . وبينما كان عمر يحدق الى الازدحام الساطع في الشارع ، تناول قدح الشاي المحرق الذي تطفو على سطحه خصلة من نبات النعناع ، فحمله الى شفتيه ورشف من السائل الذهبي اللون رشفة طويلة .

تنهد عكاشة ، ثم ابتسم وقال :

— أنا قلق

فأعاد عمر قدحه الى المنضدة .

وتابع عكاشة يقول :

— انني لم أكن هادئا من قبل ، فكيف وهؤلاء الناس يملأون المدينة الآن .

— أوه ... لا خوف منهم .

— طفل .

وأخذ عكاشة يضحك ، لكنه لم يلبث أن عاد الى عبوسه •

— انني لم أكن هادئا من قبل ، غير أنني منذ رأيت هؤلاء
الناس اصبحت أحس بحمل ثقيل يجثم على كتفي

لم يتكلم عمر ، وقد أزعجه أنه أساء فهم معنى الكلمات التي
قالها صديقه •

وصمت عكاشة أيضا • وسمعا ، خلال هذه البرهة القصيرة
من السكوت ، الكلمات المتباعدة السريعة التي كان يتبادلها
جيرانهما من حين الى حين • قال عكاشة :

— لقد ازداد قلقي •

وطاف ببصره على الجدران القاتمة ، وتأمل « الوجاق » الذي
يشبه أن يكون ضريحا صغيرا مزينا يشع بياضه في عتمة المقهى
الفقير ، وحدّق الى المغلاة العالية الموضوعة عليه ، ونظر الى
صاحب المقهى الذي كان قدامه ، ثم تطلع الى عمر فقال له انه
يحس ان شيئا جديدا قد نبت في نفسه • وسأله :

— أنت مؤمن بالله ؟

فتعلمم الصبي وقال :

— أنا

وتفرس في وجه صاحبه ، ثم أضاف :

— لا أدري

وكان رجل قصير ذو لحية قوية يجلس على مقربة منهما ،
فضحك ضحكة متخفية لم يلبث ان نقلها الى سائر الزبائن ، فالتفت
عمر وعكاشة الى وراء بحركة واحدة لينظرا اليه • سأل عكاشة
صاحبه :

— أصحيح حقا أنك لا تعرف ؟

قال ذلك وعيناه تتأملان الفراغ • فلم يجب عمر بشيء •
فخفض عكاشة رأسه ، ولبث صامتا لا يتكلم •
ان الفتى ينظر قلقا ، من فوق كتف رفيقه ، الى الشارع المليء
بالضياء والحركة والضجة •
قال عكاشة :

— يخيل الي انني أصبحت غير مرتاح الضمير •

قال ذلك بصوت مختنق ، ثم رفع عينيه ينظر الى عمر ،
وأضاف بصوت عال :

— أوه ••• لست آخذ على نفسي شيئا بعينه •

ثم دمدم :

— وانما أتكلم بوجه عام •

وتابع يقول :

— ليس يكفي المرء بعد الآن ان يكون مؤمنا حتى يرتاح

ضميره • طبعاً ••• أنا أتمنى لو كان ايماني مصحوباً براحة في
ضميري • ولكنني مؤمن وغير مرتاح الضمير •

وفجأة صاح بعنف مكظوم خفق له قلب عمر :

— لكأنتي لم يبق لي في هذه الحياة شيء أعمله • يمينا ان
هذا هو ما اشعر به •

قال ذلك وهو يغرز في عمر نظراته السود المتقدة •

— نعم •

أحس عمر بأنه تعيس • وأخذ عكاشة يضحك ضحكا خافتا •
ولم يتكلم أحد منهما بعد ذلك ، وغرقا في ذلك الصمت الذي
يغرق فيه رواد هذا المكان ، اذ يظلون ساعات طويلة جنبا الى
جنب دون ان يتبادلوا كلمة واحدة •

وخرجا بعد قليل • الناس يسرون في الضوء الازغب ، وكأن
شمس الربيع قد جلت المدينة فبدت نظيفة ملتمة • ان عمر
ما يزال يفكر في أقوال عكاشة • ان ما لهذا الحائك من حركات
هادئة ومزاج معتدل ، على تحفظ ، ييث الطمأنينة في النفس •
ان المرء لا يستطيع الا أن يتأثر بهدوء عكاشة ، خاصة اذا كان
يعرف ذلك الطبع الغريب الذي يتصف به الاحمر مثلاً • كان
عمر يشعر بأن لعكاشة مزاجا يفيض بالعاطفة حقا • ومع ذلك لم
يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك الاضطراب الذي أيقظته فيه
أحاديث عكاشة •

وفيما كانا يسيران انبجس من سيل المارة شيخ ذو وجه عريض متجبب ، يرتدي أسمالا رثة ، ويتلمس الطريق امامه بعصا طويلة • انه يقضم أثناء سيره كسرة من الخبز ، ويصيح بصوته القوي من حين الى حين :

— حسنة يا اخوان ، حسنة للاعمى المسكين •

ان عينيه الميتين تحت جفنين أحمرين منتفخين تبدو ان حاقنين • انك تقرأ آيات شقاء بهيمي على وجهه المتغضن الذي تجتاحه لحية كثيفة قدرة ملطخة باللعب •

كان عكاشة يصطدم به دون ان يراه لولا انه تلقى العصا بين ساقيه ، فأخذ عندئذ بيده ، وردده الى طريقه •

وعند « باب بومدين » كان هنالك حشد كبير من الناس يتكسبون فهذه نساء وبنات صغيرات يمتدحن ارغفة خبز الشعير التي يحملنها للبيع • وهؤلاء رجال من تجار الامتعة الغنيقة قد فرشوا على الارض انواعا لا حصر لها من الاطمار القديمة • وهؤلاء قصاصون قد تحلق حولهم العاطلون فهم يحكون لهم بصوتهم الصادر من أسفل الحلق كصوت اهل الجنوب ، سير أبطال الزمان القديم • وهؤلاء باعة متخفون متعجلون خائفون يتسللون بين حشود الناس ، ويغمزون المارة عارضين عليهم سلعا من السلع التي لا يجوز الاتجار بها : سكر ، صابون ، زيت ، دقيق ••••• ان سوقا سوداء قد قامت في هذا المكان في أيام التقنين هذه •

ف وراء هذا العالم الذي يغلي ويفور ، وراء هذا العالم الذي
لا يُخفي بؤسه ولا يحفل به ، انما كان رجال الشرطة ، الذين
ينتمون الى عالم آخر ، الى العالم الذي يهدد ويتوعد ، يسودون
ويحكمون ، كآلهة لا سبيل اليها وليست اشخاصا بأعينها ♦
هكذا تجول عمر وعكاشة في الشوارع خلال فترة من الوقت
ثم افترقا ♦



كانوا يأكلون ، فبعض يأكل خبزا وقليلًا من مصالة اللبن ،
وبعض يأكل خبزا وقليلًا من الزيتون ، وبعض يأكل مع الخبز
بطاطس طبخت بكثير من الماء وقطرة من زيت • انهم يمضغون
طعامهم صامتين •

وفوق رؤوسهم تتدلى شباك طويلة من شباك العنكبوت وهي
تترجح متراخية كسلى • وعلى الارض غطاء أبيض من غبار
يرمونه ببصقاتهم من حين الى حين • والغبار نفسه يتشبث بجميع
الاشياء سبائخ دقيقة ناعمة ، فهو يغطي أخشاب الانوال والجدران
الخشنة واسلاك الكهرباء والحبل المنشور من اول المعمل الى
آخره •

وانتهى حمدوش من التهام طعامه أول المنتهين ، على عادته
في السرعة المتهاجة • حتى اذا مسح فمه بقفا احدى يديه ، اتجه
بالكلام الى عكاشة يسأله بلهجة ملتبسة :

— قل لي ، هل صحيح أنك انخرطت يوما في السياسة ، ثم
عضضت أصابعك ندما على ما فعلت ؟

— السياسة ؟ جميع الناس يعملون في السياسة •

ألقى عكاشة نظرة هادئة على حمدوش دون ان ينقطع عن تحريك فكيه ، فاستاء الاحمر وعاد يقول :

— لست أفهم ما تريد أن تقوله • أنا مثلاً أهتم بعملتي ولا أكثر بشيء عداه •

— وأنت تعمل في السياسة ايضاً •

وفي أثناء ذلك انطلق شول يضحك ساخراً من هذه التصريحات التي ادلى بها حمدوش ، ذلك ان حمدوش هو بين سائر العمال اقلهم مواظبة على العمل واستمراراً فيه • كان لا يكاد يعمل في معمل حتى يهجره الى غيره ، وبذلك طاف المدينة كلها من أقصاها الى أقصاها •

— غريب • وهل حين أذهب الى زازا اعمل في السياسة ؟ قال حمدوش ذلك وأخذ يقهقه قهقهة عالية من شدة فرحه بمزحته الموقفة • وزازا هذه مومس من الاحياء الدنيا ، وهي أثيرة قلبه •

كان الآخرون صامتين لا يتكلمون • وفي أعلى ، من خلال زجاج النافذة العالية ، كانت ترى اطياف مارة يسيرون غارقين في ضوء أغبر • وكانت جلبة الشارع تصل الى الكهف ، غير أنها تصل اليه ضعيفة لا تفهم •

— المفتش نفاف ...

قال مصطفى رزاق ذلك ، وانقطع عن الكلام وتمطى طويلاً ، ثم تابع يقول :

— المقتش نفاف ، قال لي وهو يخرجني ذات يوم من باب السجن : « ألا تستحي أن تقضي حياتك كلها في السكر ؟ يجب أن تعود الى رشدك » فأجبتته بقولي : « لقد ظلمت طوال حياتي أعمل فرأيتني بعد ذلك العمل واقفا حيث أنا لا أتقدم الى أمام خطوة واحدة • لذلك قررت ان لا اعمل الا من أجل ان اكسب ما ادفعه ثمن الخمر » فقال لي وهو يدفعني الى خارج السجن : « لسوف تفتس من ذلك » ، فوددت لو أجييه قائلا : « أنا أسكر فأسلو ، أما أنت ، يا غبي ، فما سيبلك الى السلوان ؟ أهو تعذيبك لاختوتك البشر ؟ »

وأجال مصطفى رزاق نظرتة الحاملة في المعمل • ان وجهه طويل نحيل • وأضاف يقول :

— ما الفائدة من الحياة ؟ لا فائدة منها • • لذلك أشرب ، وأنا أثناء السكر ، أنسى حماقة البشر •

قال حمزة :

— ليس هذا بأكيد •

فلم يجبه الآخر ، ولكنه رفع قبضة يده وهوى بها على أحد الانوال •

— جائز •

قال شول مازحا :

— عدا هذا ، أنت مسرف في حب الشراب •

فتنه رزاق ، ومال برأسه ذات اليمين وذات الشمال كمن في صدره كلام كثير يطول شرحه •

كان حمدوش جالسا على احدى درجات السلم ، منزويا ، عاقدا يديه على ركبتيه ، يصغي الى الاصوات المبهمة التي تقوم في الشارع الصغير • ان وجهه الجميل المتناسب القسما يعبر الآن عن استغراق في التفكير • شفتاه ممطوطتان ، وقميصه الازرق ينحسر عن صدر ابيض تنتشر عليه شعرات شقر • قال مدمدما :

— هذا كله ليس له كبير قيمة •

— زازا وحدها هي التي لها قيمة في رأيك •

قال شول ذلك وتفلطح فمه الذي لا اسنان له ، فتثأب ثم أردف ينق :

— أئتما متلازمان ••••

حين سمع الاحمر اسم صاحبتة حملقت عيناه • واقترب حمزة من عكاشة فسأله بلهجة الاسرار :

— هل سجنّت ، أنت ؟

• فلم يجبه عكاشة •

صاح حمدوش :

— السياسة ، ما السياسة ؟

فارتفع صوت حمزة يهتف :

— يا جزائر ، يا جزائر ، أين رجالك ؟ من ذا الذي سيوقظهم
من سباتهم ؟ لقد اشتدت كرب الشعب ، لقد اتسعت كرب
الشعب ♦

فصرخ حمدوش صرخة كبيرة انتفض لها المعمل كله ، ثم
تظاهر بأنه يبكي بكاء متقطعا :

هي هي هي هي ♦♦♦♦

تابع حمزة :

— السياسة شيء معقد يفهمه كل واحد على طريقته الخاصة
به ♦ فبعض يقول : يجب اعطاء جميع الاراضي للفلاحين ♦ وبعض
يقترح : «اعطونا كل شيء ونحن نوزع على ابناء الشعب بالعدل» ♦
وهكذا ترى ان السياسة تعنى برخاء بني البشر ♦

قال الاحمر :

— طيب ♦♦♦ ولكن نحن ♦♦♦ نحن الحائكين ؟

— نحن ؟ نحن زبالة ♦

فألقي حمدوش نظرة احتقار على حمزة ، وأشاح بوجهه عنه ♦
قال مدمدما :

— من حكم عليه بالاشغال الشاقة ، وخاصة من حكم عليه
بالاشغال الشاقة منذ قديم ، ليس الا حمارا بيردعة ♦

وكان قوطي الامين معتزلا في ركنه من المعمل يتمم على
عادته • انه يحرك شفتيه كثيرا ، دون ان يرفع صوته ، كأنما هو
يستعرض افكاره ثم يستعرضها الى غير نهاية •

وحين فرغ عمر من تناول طعامه ، مضى يلتحق بالصبيين
الآخرين اللذين ابتعدا الى آخر المعمل ، وجعلا يرشقان شفار
القصب في الهواء ثم يستقبلانها على قفا اليد وهما يتصايحان •



قال صاحب المطعم :

— أخذ النهار يطول •

وفكر لحظة ثم أضاف :

— لقد لقي هتلر من يقف في وجهه في الشرق •

وصمت • ولكنه ، كمن لم يفصح عن كل ما في ذهنه ،
استأنف كلامه :

— سوف يعلمه الروس كيف يعض التراب ، هذا لا شك فيه •

فهز عكاشة رأسه هزا خفيفا لا يكاد يرى •

كان المعلم واقفا وراء بسطته المحملة بأطعمة بائنة • وكان
عكاشة مستندا بكوعيه الى احدى الموائد الطويلة في المطعم
الفقر ، يتأمل كأس الشاي الموضوع أمامه ، الذي تنقع فيه أوراق
الابسنت ، وقد وضع يده على خده ، وراح ينشق من سيجارته
أنفاسا مطردة •

ان عمر يحس بهذا الزمان الذي يجري احساسا يشبه أن
يكون جسما • وكان في المطعم رجل آخر ، فلاح يدل مظهره

على أنه حمال ، وشابان في نحو الثامنة عشرة او العشرين من
عمرهما ، عاريي الرأسين ، يرتديان ملابس الزي الاوروبي • ان
الجلبة التي يحدثها زبائن المقهى تختنق في هذا الجو الذي ينضح
دهنا ، والذي أصبحت رائحة الطعام الكريهة جزءا من هوائه
وموائده الخشنة الخبرة وأرضه السوداء ومقاعده المهترئة •
والقاعة يعوزها النور ، فضوء النهار ينخله زجاج بابها فما يصل
اليها الا كامدا كاييا • ومن ضجة الشارع لا يبلغها الا اهتزاز
خافت •

بعد ان قال المعلم تلك الكلمات رفع مغلاة الشاي التي
يضعها دائما قرب الموقد ، وملاؤها منها قدحا الى آخره ، ثم جاء
فوضع الشاي أمام الصبي دون ان يقول شيئا ، ورفض الصبي
باقة الالبست التي مدها اليه ، لان صدره ينقبض لرائحة هذا
النبات ، فما الح المعلم •••

كان عمر يدرك ان عكاشة قد سر بمجيئه • ان هذا الحائك
يجيء الى هذا المكان في جميع أيام الاحد • انه والمعلم صديقان
قديمان ، وهما كلاهما يحبان التأمل ويحبان الشاي بالالبست •
وفي هذه اللحظة ، انفتح الباب ، فما كان أشد دهشة عمر
حين رأى حمزة يدخل ويقبل عليهما مبتسما •

— هيه •• جئت ألحق بالرفاق •

قال حمزة ذلك ودار حول المائدة فجلس قرب عكاشة •

ان كل حديث مع عكاشة اصبح الآن مستحيلا •

التفت عمر نحو الصالة ، ورصد الشابين اللذين يرتديان ملابس
على الزي الاوروبي • انهما جالسان في وسط المطعم •

وكان حمزة يتكلم ، فاذا هو يمسك عن الكلام في منتصف
جملته ، ويتمتم قائلا :

— لنمسك عن الهذر •

وسأله عكاشة :

— لماذا ؟

— لا لشيء •

ولم يقل السجين السابق بعد ذلك شيئا •

فقال عكاشة دهشا :

— أنحن الخائفون اذن ؟ يمينا انه ليكفي ان تتحرك قليلا ،

حتى يوسخوا سراويلهم •

فhez حمزة رأسه •

— يلقون اليكم بعظمة ، فاذا أتمتم تعودون الى الطاعة

والرضوخ ، كالكلاب • لقد علموكم كيف تخضعون •

كان يتحدث بثقة هادئة تضيفي على كلامه ثقلا كثقل البداة •

وابتسم عكاشة ابتسامة مقهورة ، وخفض رأسه • قال

مدمدا وقد أخذت يده تترعشان :

— لقد علمونا ان نخضع ••• ولكن يجب أن لا يركنوا الى هذا كثيرا •

فرفع حمزة كتفيه • فرشقه عكاشة بنظرته السوداء ، ثم القى على القاعة نظرات سريعة • وظهرت تلك الابتسامة المقهورة مرة أخرى في شفثيه اللتين انعقفتا قليلا في أدغال لحيته • ان حركاته تنم عن عذاب وغم في نفسه •

دمدم السجين القديم :

— اذا كان الناس كما تراهم فليس الذنب في ذلك ذنبهم • وكان عمر ما يزال يرصد الشابين وقد ثار حب الاطلاع في نفسه •

انهما يجلسان متبخرتين ، على كرسيين عتيقين غاص قشهما ، وقد باعدا بين ساقيهما مباعدة كبيرة ، فليس يتفق وضعهما كثيرا مع ما في هذا المكان من شظف • وفجأة أظهرها علامات الانزعاج والتملل ، كأنما هما يدهشان من وجودهما في هذا المكان : ان أحد اصحابهما قد دخل في هذه اللحظة • ولكن هذا ، بعد ان القى السلام على الناس بصوت عال : « السلام عليكم » ، وبعد أن سأل ، وهو ما يزال عند الباب ، هل في المطعم حرية (١) ، مضى يجلس الى مائدة في الركن دون ان يحفل بهما • عرف عمر الشاب الداخل الذي أشار له بيده يحييه ، انه جمال طراز ، ابن حقيقي لاسرة من « كبار الاسر » ، فتى يشد ابليس من ذيله •

(١) حساء يصنع من الخميرة •

سمع عمر حمزة يقول في هذه اللحظة :

— هكذا ...

وسقطت نظرة الحائك الشاحبة على الرجل ، فتأمله الرجل خلال بضع ثوان في انتباه ، الا أن فكره كان يطوف في غير ذلك • ان ابتسامة داهية تمحو الآن دمامة وجهه الكثيف • تفرس عكاشة في حمزة من تحت حاجبيه الضخمين • كانت نظرتة قاسية ، وكانت ابتسامته قد اختفت •

تابع حمزة يقول :

— لا شك أن جماعتنا عبيد ، اذ لا شيء في هذه القيود التي توثقهم يفيدهم ، وهم يتحملونها مع ذلك •

قال هذه الكلمات بصوت خافت لكنه واضح • لم يستطع عمر ان يدفع عن نفسه ذلك القلق الغريزي الذي أيقظه فيه هذا الرجل ذو الجمجمة المفرطة •



ثمة شيء في القاعة كان قد تغير • ان عمر يراقب الشابين المختالين اللذين دهننا شعرهما بالزيت • لقد أمر كل منهما لنفسه بسجقتين صغيرتين مع الفلفل الاحمر داخل قطعة من الخبز ، فهما ينشبان في السجق أسنانهما ، ويزدردانه بشهية نهمة ، وما هي الا لحظة حتى أجهزا على الطعام ، فنهضا عن مكانيهما بحركة واحدة دون ان ينسبا بكلمة ، ومضيا يدفعان ثمن ما أكلاه بضع قطع من النقود وضعها على البسطة الضيقة المزدحمة ببيض مسلوق واسياخ كبديء وسمك مقلي بارد وخبز مقسم قطعاً •

لاحظ عمر في هذه اللحظة ان وجودهما كان ثقيلًا على صدور جميع من كانوا بالمطعم ، فما ان خرجا حتى أحس الناس ان الهواء قد خف •

وحين جاء المعلم الى جمال طراز بحسائه تلبث عنده قليلاً وسأله :

— مع ليمون ؟

فأجابه جمال طراز :

— لا •

— قطعة خبز ؟

— لا •

فعاد صاحب المطعم الى مكانه وراء بسطته ذات المدخل المقدود فيها • وكان بالجدار وراء البسطة كوة جعلت خزانة ونضدت فيها رفوف ، فوضع المعلم صحنا على احد الرفوف العالية علو قامته ، وادار ظهره للقاعة وجعل يأكل •

وامام مدخل المطعم كان الخادم ، وهو فتى نحيف شديد البياض شاحب الوجه ، كان واقفا يهوي الموقد الموضوع في كوة فوقها مدخنة • ان اسياخ الكبد الملفوفة بشحم الخروف ، المصفوفة على مشواة ، تصدر دخانا كثيرا يملأ القاعة برائحة حادة من رائحة احتراق الدهن •

وفي هذه الاثناء كان حمزة يتكلم بلهجة واحدة لا يرفعها ابدا •

ففيما كان عكاشة يشعل سيجارة جديدة ، قال السجين القديم بسرعة وهو يلعب بلحيته ذات الشعر المنقلب :

— يتفق لي أحيانا كثيرة أن أتساءل عن انفسنا ما نحن ؟ نعم ما نحن ؟ هل لك ان تقول لي ما نحن يا صاحبي ؟ فقال عكاشة ساهما :

— ما نحن ؟

وألقى عليه محدثه نظرة مأكرة ، وقال :

— نعم ، ما نحن ••• هل تستطيع أن تقول لي ما نحن ؟

— الامر بسيط كل البساطة • اتنا لا نعرف ما نحن • ولعلنا
في هذا العالم المخلوقات الوحيدة التي لا تعرف ما هي ، ولا الى
أين هي سائرة • لو سألت أية بهيمة ، لعرفت كيف تفهمك
ما تريده ، أما نحن •••

وقبل ان ينهي الرجل جملته ارتفع صوت السجين القديم
يسأل :

— أيها الانسان ، من أنت ؟

كان ما يزال يملس ثم يخلط كث لحيته بأصابعه الضخمة
الثقيلة القصيرة وكان قد خلع طربوشه الاحمر ووضعه على المقعد قرب
و ظل يعذب لحيته مدة طويلة على هذا النحو ، ودمدم أخيرا
يقول :

— أين أنتم يا رجال الحق ؟

قال عكاشة وهو يحرك يده نافذ الصبر :

— فلننظر في هذا الامر •

— يظهر أنك اختفيت من المدينة منذ بضعة أعوام لانك نظرت
في بعض الامور عن كثب •

فهز عكاشة كتفيه •

قال حمزة :

— في رأيك ، ما الذي يحدث اذن في بلادنا ؟

ولكنه في هذه اللحظة نفسها نسي سؤاله وهمس في اذن
عكاشة :

— أنظر الى ما يجري في القاعة

فاستدار عمر على مقعده في رفق ينظر هو أيضا • كان الصبي
الذي يعمل « مساعدا » للطباخ يثرثر مع الزبون الذي تدل هيئته
على أنه حمال • قال له :

— ائتنا بما تساوي قيمته ثلاثة « دوروات » أيضا •
كان هذا الرجل ، الذي لا يراه عمر الا من ظهره ، يقحط
بملعته في عناية طبق القصدير الذي يأكل منه ، ثم تناول الطاسة
بين جوف يديه ، وشرب السؤر الذي كان فيها ، ولم يلق على
مساعد الطباخ ، من فوق كتفيه ، نظرة ضاحكة الا بعد ان فرغ
من ذلك كله •

وصاح المعلم يقول له ، وقد اختبأ نصفه وراء البسطة :

— ائتنا أيضا بما تساوي قيمته ثلاثة « دوروات » ، فنقتسمه
بحيث يصيب كل منا ما قيمته « دورو » واحد •

فضحك الزبون ضحكة خالصة ، وكان قد فرغ من تناول
طعامه ونهض ، فقال :

— اذن تريدون مزيدا ؟ بثلاثة « دوروات » ؟

وعاد يضحك دون ان يتخلى مع ذلك عن شيء من التحفظ •
واتضح حين قام أنه رجل طويل القامة جدا ، وانه كذلك ذو انف

أقنى ، وان وجهه وجه طفل • كان يبط رقبتة ويضحك في سداجة •

— نعم ، وسنقتسمه فيكون لكل واحد ما قيمته « دورو » •
قال المعلم ذلك ، ثم لم يستطع ان يجبس ضحكته ، فأخذ يقهقه قهقهة مختنقة وفي صوته دموع • وأخذ الصبي يضحك امام موقده بصوت حاد ، وجعل الرجل الذي تشبه هيئته هيئة الحملين — أنراه كان حمالا ؟ — يضحك كذلك بصوت ثخين • وكانت ضحكتهم جميعا ضحكة رضى وتواطؤ •

نظر حمزة الى عكاشة ثم نظر الى عمر ، وقال وهو يبتسم أيضا :

— ما اكثر ما يبدو في هؤلاء الناس من تفاهم وسرور ! فهل تظن أنهم في سلام مع انفسهم ؟ من ذا الذي يستطيع ان يعرف شيئا عما يختفي وراء هذا السلام الظاهر ؟

ان عمر يريد في هذه اللحظة أن يخرج • نظر الى الشارع من خلال الزجاج • لا خوف ان تهطل قبل هبوط الليل • لقد انقضى من الاصيل شطر كبير • ان عمر اصبح لا يستطيع ان يتنفس ، كأن الهواء لا يدخل رئتيه •

صف الحمل على البسطة عدة قطع من النقود ، وهو يغض عينيه في مكر • فنهض المعلم ممتلئ الفم بالطعام ، فلم قطع النقد ثم رد واحدة منها الى يد الزبون •

قال الزبون :

— ماذا ؟ هل أعطيتك زيادة ؟

وتقلصت جوزة عنقه ، الناتئة ، الضخمة ، وسمعت ضحكته
الخارجة من الجوف ، مرة أخرى ♦

قال له صاحب المطعم من خلال الطعام الذي يربك فمه :

— بل احتفظ بهذه ، لتشرب بها قهوة على حسابي ♦

وضحك وهو يحاول ان يحبس الطعام الذي في فمه ♦

فلما اجتاز الزبون باب المطعم ، صاح المعلم يقول له مرة
أخرى :

— سنقتسم ، لكل واحد « دورو » ♦♦♦

واستطاع أخيرا أن يضحك من كل قلبه ، بعد ان بلع ما كان

في فمه ♦

انتهاز عمر هذه الفرصة ، فترك الحائكين ♦ هو الآن في الشارع

وحيد ، حر ♦♦♦ لكأن الهواء قد غفا ، فهو ناعم هادىء ، والمدينة

تستريح في ضياء قاتم عجيب ♦



غمامات رقيقة ندفتها ريح الصباح ، تجري في السماء الزرقاء الشاحبة جريا سريعا • أحس عمر أنه خفيف ، كريشة • فلما وصل الى الكهف علم ان زيش مات • لقد ذهب مرض التيفوس برفيق عمله في المعمل • صعق عمر • ان زيش قد انقطع عن المجيء منذ أيام ، فلم يكثر أحد لغيابه • وكان عمر لا يؤمن بالموت ، مع أنه شيع عددا من الناس الى مثواهم الاخير ••••• عددا اكبر من أن يحصيه • أما ان يحدث ذلك على مقربة منه ، فهذا ما يدهشه كل الدهشة • انه لا يفهمه • وتراءت له قامة زيش النحيلة تنهض امام عينيه • رأى الوجه الصغير الشاحب الذي يفضنه التكشير ، وخيل اليه أنه يسمع مرة اخرى تلك الحكايات الفظيعة التي كان يقصها هذا الصبي الاشوه • تذكر كيف كان الفتى يخيف نفسه بنفسه ، كيف كان ينظر الى ما حوله من جانب في اشتباه ، ويخفض صوته ، ويضع اصبعه على فمه قائلا : هس •

كان يهمس باللفظ ، فكأن كلامه آت من بعيد ، من الضفة الاخرى ، من العالم الآخر ••••• لكأن كلامه صدى غائم لعالم يختبئ وراء ستار عميق •

قال شول :

— ... نعم ... ألم يكن موته خيراً له ؟ لقد ارتاح •

خرج عمر فجأة من أحلامه ، انطفاً في سمعه الصوت الصغير ،
صوت الصبي الذي مات •

ودمدم الامين يقول :

— ولدوه ، فعاش ، ولعب ، وتحرك في الحياة ما شاء له
هواه ان يتحرك • ثم ماذا ، هاهوذا قد مات ... وكأنه لم يكن ...
واضاف الامين :

— يا أيها الناس الذين لا تحفلون الا بهذه الحياة الدنيا ،
ما عساكم فاعلين بين يدي الله ؟ ... يا ويلكم من الله !
قال دلو :

— الشقاء ؟ خلقنا له وخلق لنا •

فحرك الامين شفتيه يريد ان يجيبه ، واهتز شعر شاربيه
ولحيته ، الا أنه لم ينطق بحرف •

قال صقالي محتجاً على هذا الحديث ، وفي عينيه دعر شيخوخة
خائفة :

— مات ، الله يرحمه • ما لنا ولتكرار هذا الحديث في غير
انقطاع !

تذكر عمر الجدة ماما ، وبنت العم الصغيرة ، اذن لقد مضى
الصبي الفكه يدركهما في عالم الاموات • لا حيلة للمرء في رد
هذا القضاء • انقبض قلب عمر •

وبعد بضع لحظات جاء ماحي بوحنان ، وقد أبلغ النبأ ،
جاء الى المعلم من أجل أن يصحبه عمر الى منزل أم زيش •

فما رأى عمر البيت من بعيد حتى أصاخ بسمعه ، ان ولولات
حادة ترتفع عند آخر الشارع الضيق • والصوت ينتقل من الالم
الى الدهشة ، ومن الدهشة الى أقوى تعبير عن اليأس • وفجأة
توقف الصباح ، وخيم الصمت •

دخل الصبي ليبلغ أهل البيت أن المعلم جاء • ولبث بوحنان
ينتظر أمام الباب • ولكن ما ان وضع الفتى قدميه في البيت حتى
استقبلته ولولات جديدة • هي بكاء لا سبيل الى حبسه ، بكاء
بصوت أبح لم يلبث عمر ان عرف فيه صوت عائشة ، أم زيش •
اشتدت رهبة الصبي •

كانت عائشة جالسة وسط عدد من النساء تحلقن في الفناء
تحت الرواق ، وقد اخذت تلطم صدرها وذراعيها ووجهها وهي
تتنحب • كانت الدموع تسيل على خديها المخدشين ، وعيناها
السوداوان ترسلان نظرات كنظرات بهيمة مروعة ، والزبد يرغي
على حواف شفيتها • ظل عمر ينظر اليها ناسيا المهمة التي جاء من
أجلها ، وينظر الى هذه النساء اللواتي ييكن معها • ولكن عائشة
عرفته ، فتأملته لحظة وهي ترتعش ارتعاشا شديدا ، وقد افلتت
غدائر شعرها من المنديل الذي كان يجسبها • وأشارت له اخيرا
ان يقترب ، فمضى اليها متسللا بين جمهرة النساء وهمس في أذنها
أن المعلم واقف على الباب يريد ان يراها • فنهضت على الفور

وردت غداثرها الى ما تحت المنديل وعقدته عليها • ثم مضت الى الباب مع عمر بينما اخذت النساء تثرثر •

فلما عادت يتبعها ماحي بوengan وعمر طلبت الى النساء ان يختبئن • فهرعن جميعا الى الغرف المجاورة ، الا العجائز منهن ، فقد اكنفن باسدال الحجاب على وجوههن ولبشن في اماكنهن • دخل الرجل والصبي وعائشة الى الغرفة الصغيرة المظلمة ، التي يتمدد في وسطها كفن مسجى لاح للصبي طويلا مفرطا في الطول ، فتحير الصبي ودهش • لكان الموت قد مط ذلك الصبي الصغير فجعل منه الرجل الذي لن يكونه •

جثا ماحي بوengan على كعبيه امام جثمان الميت صامتا ، وأخذت شفتاه تتحركان بسرعة ، فما هي الا لحظة حتى اخذت الدموع تتساقط من عينيه • وكانت الام واقفة تراقبه وقد شبكت يديها على بطنها ، وجف وجهها وجفت عيناها • واقتربت النساء ترصد المشهد من عتبة الباب • فقام بوengan في عناء وهو يتنفس تنفسا قصيرا ، فهربت النساء مرة اخرى مروعات • وفي هذه اللحظة رأى الصبي المعلم يضع في يد عائشة شيئا ما ، فاذا بالمرأة القصيرة الرثة تأخذ تكيل له الشكر في اضطراب ومذلة ، ثم اذا هي تنفجر باكية منتحبة على حين فجأة •

وخرج ماحي بوengan وعمر ، عندما عادت ولولات الحداد •

قال بوengan بصوت خافت في الشارع :

— مات طيب ماذا نعمل ؟

★ ★ ★

لبث عمر بضعة ايام في حالة من الاضطراب • كان يذهب ويجيء ويقوم بألف عمل وعمل ويجري في الشوارع الغارقة في جو الربيع ، وهو شارد اللب ذاهل • ومع ذلك كان شعور غامض بالسعادة يغزو قلبه على غير علم منه ، ويوقظ فيه أصداء خفية عذبة لا يدرك الصبي كنهها ولا يستطيع الافصاح عنها •

غير ان الجو لم يلبث ان اجتاحه البرد على خلاف كل ما كان ينتظر • وعادت تغطي سماء المدينة سحب كثيفة كأنها الرصاص ثقلا • وأخذت تهطل أمطار رقيقة بغير انقطاع فتلف بغلاتها المباني والخضرة التي بدأت تنبت على اغصان الاشجار ، واطياف المارة • ان جداول صغيرة تتواثب على ارض الشارع ، ثم تجري مسرعة الى أفواه البلايع • وعادت المدينة تغرق في أفكارها السود • وكثر جمهور المتسولين كثرة لا عهد بمثلها من قبل •

هذه الوجوه المغلقة ، هذه الاعين التي لا تنظر الى أحد ، أتراها تعلن عن قيام عهد جديد ؟ هؤلاء الشياطين الذين يعتقد جميع الناس أنهم لا عقل لهم ، أتراهم يعلمون من الامر ما لا يعلمه غيرهم ؟

لقد عيل صبر السكان ، فأصبحوا يتجاهلون وجود هؤلاء

المتسولين ، ولا يكثرثون بهم • وكان عودة الصحو ، رغم فترات ندمه ، قد أبعدت تلك التهديدات الخفية التي أثقلت المدينة في لحظة من اللحظات ، عدا أن رجال الشرطة أصبحوا الآن يرابطون في كل ركن من أركان الشوارع •

وفي الكهف لم ينس الناس زبيش فورا ، فمن حين الى حين يروي أحد الحائكين فكاهة من فكاهاته ، أو يقلد مشيته ، أو يتذكر حكاية من حكاياته ، ثم يأخذ يشتم الصبي على سبيل المزاح ، كأن الصبي ما يزال في الكهف يسمعه • وقد أحل محل زبيش في العمل بالمعمل فتى من الضواحي ثقيل بدين •



حين عاد الى هذا المقهى مرة ثانية ، ما ان جلسا الى احدى
الموائد حتى سمعا صوتا ضخما اباح يصل اليهما من خارج :

— يا الله ، ساعدني يا رب ، أصبحت لا أحتمل الحياة • لماذا
تسى عبدك يا رب ؟ اقبض اليك هذه الروح التي هي ملكك • •
ثم رأيا رجلا رث الثياب مغبرا ، هرما ، مستندا بذراعه الى
طفل يتهافت على الارض عند مدخل المقهى ، ويضع عصاه بين
ركبتيه المرفوعتين • انه يميل برأسه على صدره كأنه مكسور
العنق ، ويلبث على هذا الوضع لا يتحرك ، حتى لكانه يغفو ، غير
أن يده الضخمة ذات الاظفار الطويلة لا تدع قبضة الصبي النحيلة ،
بل تتشبث بها تشبث اليأس •

فلما رأى أحد زبائن المقهى هذا المنظر ، نهض واقفا بين
الموائد ، ودفع شاشيته الحمراء الفاقعة ، وصاح بالمتسولين قائلا :
— أأنتما آتيان من الريف ؟

كان واضحا أنهما آتيان من الريف ، فسؤاله اذن من نوع
الاسئلة التي لا جدوى فيها ، ولكنها تطرح دائما •

دمدم الشيخ الهرم يقول وهو يرفع رأسه في مشقة :

— نعم أيها المحسن •

واضطربت شفته السفلى وتركت لمجاجة من لعبه ان تقطر من
فمه • ونظر المتسول طويلا الى جميع الناس من مكانه ذاك •
سأله الرجل :

— هل في الريف مجاعة ؟

وكان الطفل قد تدرج على الشيخ تدرج الكرة •
قال الشيخ في مثل رجع الصدى :
— مجاعة !

ثم شخر شجرة غريبة مزعجة • فاستدار عكاشة في هذه
اللحظة مع كرسيه نحو الباب ، ونظر الى الشيخ • كان الشيخ
ذاهلا ، مبهم العينين ، متجمد القسمات •

وقال أخيرا بصوته الاصم الثقيل :

— حتى عصافير ربنا تموت جوعا هناك •

— العصافير ؟ آه • آه • آه اذن لم يبق على الاشجار ثمار
ولا بقيت بذور برية • أتيتم أنتم على كل شيء ؟

وفغر الزبون فمه الواسع ، وانطلق في ضحكة صاخبة • ان
قوة ظافرة تخرج من شخصه • وأسنانه البيضاء تلتمع في وجهه
العريض الذي غني بحلق شعره عدا شاربيه الكبيرين المشدودين •

— من أجل الاكل ، أنتم أقوىاء ••• آه ، آه ، آه ، أما من
اجل العمل ، فتلك حكاية أخرى • هل يمكن ان تنال المجاعة
من انسان يعمل ؟ أنتم أناس تؤثرون ان تستعطوا على أن تبذلوا
شيئا من جهد •

وانطلقت تلك الضحكة نفسها مرة أخرى تهز صدره الذي
يشبه ان يكون صدر هرقل • فخاف الشيخ الهرم خوفا ما كان
لسوط يقرقع فوق رأسه ان يبعثه في نفسه •

— آه ••• أيها المحسن •••

فهز الرجل رأسه وقال :

— الارض لا بد ان تنتج دائما ••• الا ان تكون الايدي
التي تعمل فيها خبيثة ••• وعندكم قد خبثت الايدي وخبث القلب
جميعا • ان المرء يستطيع ان يستتبت الصخر نفسه اذا أراد •

كان الصبي لاطيا بالشيخ يتفرس في الرجل في عنف موجه ،
وصمت المتسول كالاخرس لم ينطق بحرف •

عندئذ اتجه الرجل اليه ووضع في يده صدقة • فأخذ المتسول
يدعو له بصوته الغليظ الخشن ، ونهض وهو يئن جارا الصبي
من يده • ولكنه قبل ان يقف على قدميه تماما ترنح وأوشك أن
يسقط • ذلك أن الصبي وقع على الارض ، وهمّ أن يوقع معه
الشيخ •

عاد الزبون فجلس في مكانه ، وأخذ يتحدث مع رفيقيه في
همة وحرارة •

نهض الصبي في غناء • ومضى هو والجد في الشارع الذي
يقابل المقهى • غير ان نوبة من سعال طويل استبدت بالشيخ ،
فتوقفا مضطرين ، ثم سمع صوت الشيخ وهو يقول للصبي
مؤنبا :

— ان لم تقف على ساقيك تركتك هنا •

وغابا بين الناس ، غير أن صوت الشيخ ظل يسمع متكسرا
وهو ينادي في بعيد :

— يا اخوان ، يا مؤمنون •••

ظل عكاشة صامتا طوال ذلك المشهد • ثم عاد الى وضعه الاول
امام عمر دون ان يقول كلمة واحدة ، واستند بكوعيه الى المائدة •
لبث ساكنا لا يخرج عن صمته • أخذ عمر يشتبه في النية التي
كان يبيتها الحائك حين قاده الى هذا المكان ، الى هذا المقهى •
كان قد أدرك ان عكاشة ينتظر منه امرا من الامور • فما هو
هذا الامر ؟ أيقين أم عزاء ؟ أشجيع أم التجاء ؟ لم يستطع عمر
أن يعرف ذلك • ولعل عكاشة نفسه لم يكن يعرف • غير ان عمر
أدرك انتظاره هذا ادراكا واضحا • فلما خطر بباله ذلك ، استولى
عليه غضب أخفاه • ونظر الى عكاشة ، ولكن عكاشة كان خافض
الرأس •

ما الذي حدث ؟ لماذا يحس بحلقه جافا هذا الجفاف ؟

اتضح الآن كل شيء : كان عكاشة يريد ان ينقل اليه ما به

من كرب • لعله كان لا يلاحظ هو نفسه ذلك ، غير أن عمر على يقين من هذا •

وفي هذه اللحظة رفع عكاشة رأسه ، فاذا بالصبي يشعر بقلق مفاجئ • بدا له أن صديقه قد اتخذ قرارا خطيرا ، فان في وجهه كثيرا من الجد •

قال عكاشة :

— هل نذهب ؟

فتحير الصبي لا يعرف ما الذي يجب ان يعمله أو يقوله • ونهض عكاشة نهوض من يمثل لامر صدر اليه ، فتناول من جيب سترته بعض النقود فتركها على المنضدة ، وترك الرفيقان المقهى الصغير المظلم الهادئ •

فما أصبح عمر في خارج ، حتى أحس بقلقه يدوب ثم لم يبق في نفسه من ذلك كله الا شيء من ارتباك في قرارة افكاره •



كذلك أخذ عكاشة يتكلم عن السفر • قال : سيترك هذه المدينة ، وسيترك الناس كلهم ، حتى أسرته • نعم سيمضي • • • وأخذ عمر يفكر • لقد كان يتوقع قرارا من هذا النوع • ولكن ، هو ، ما هو في هذا كله ؟

فهم أخيرا لماذا كان عكاشة لا يأخذ عمله مأخذ التقدير والاعتبار ، شأن سائر العمال • كان عكاشة لا يتحدث عن عمله خارج المعمل • هذا العمل الذي يستنفد اكبر شطر من حياته ، كان ينساه متى خرج من المعمل • ذلك أنه وسائر العمال ، كانوا يتطلعون الى شيء آخر ، ويؤملون شيئا آخر • ما الذي يتطلعون اليه ، ما الذي يؤملونه ؟ لا شك أنهم لا يعرفون عن ذلك شيئا • ولكنهم يتطلعون ويؤملون • أما عكاشة فقد تطلع وأمل : تطلع الى السفر وأمل السفر • أترأه كان بذلك يريد ان ينسى ظروفه أم كان يريد ان يتحرر منها ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار لعمله ، ولنفسه ، ولرفاقه ؟ هل يكون سفره من قبيل الاحتقار ؟ الاحتقار والشعور بالعار ؟ لطالما سمع عمر هذه الكلمات تتردد في الكهف :

« نحن لا قيمة لنا ، لا تتعبوا أنفسكم في المناقشة • نحن لا قيمة لنا » •

وكثيرا ما كان هذا أو ذاك من العمال يضيف الى ذلك الكلام قوله :

« هكذا خلقنا الله ... ولا حيلة لنا في الامر » •

وكان زملاؤه الحائكون ، رغم ما بينهم من فرق في السن والمزاج والآراء ، يتشابهون في هذه النقطة : انهم يتحدثون عن أنفسهم دائما في اشمئزاز • وكان عمر يفكر في هذا بحزن ومرارة لعله أخطأ في أنه لم يشأ أن يفهم اشمئزازهم • أتراهم قادرين ، بالتلمس بعد التلمس ، على ان يجدوا لانفسهم مخرجا ؟ بالتلمس بعد التلمس ؟ وعملهم ؟ فيم كان يفيدهم عملهم اذن ؟ لماذا يقومون به ما داموا يحتقرونه ؟

وفي أثناء ذلك لم يطرأ على سلوك عكاشة أي تغير • ما يزال هادئا ذلك الهدوء نفسه ، صامتا ذلك الصمت نفسه • وكانا اذا التقيا في المطعم ، ظل عكاشة جالسا لا يتحرك ، ولا يبالي شيئا ، ولبت ينظر الى أمام باتتباء لا يضعف ، بينما الوقت يمضي • كان يظل على هذه الحال مدة طويلة لا يتحول عن النقطة التي اختار أن ينظر اليها من الفضاء • ثم اذا هو ينهض ، دون ان ينبس بكلمة واحدة ، وينظر الى عمر ، فينهض هو الآخر ، ويسيران في الشوارع التي تدحرج سيل المارة والعربات المتدفق فيها ، وتحملها في رفق ، في رفق شديد ، الى حيث لا يعرفان ، وعكاشة غارق في تفكيره ، مصيخ بسمعه ، كأن المدينة تهمس في أذنه بشيء • وكان الحائك يزداد انطواء على نفسه يوما بعد يوم • وسأله عمر ذات مرة :

— ستسافر... وبعد ؟

ولكن عكاشة أجابه :

— يجب أن يولى البشر ما يستحقونه من احترام • لماذا صار العالم الى ما صار اليه ، لماذا صار العالم شيئاً لا يشتهي المرء ان يلقي عليه نظرة ؟ لفقدان الاحترام • ان الذين يحترمون اخوتهم بني الانسان ، لا وجود لهم اليوم على هذه الارض • كيف ينظر الينا الاوريون مثلاً ؟ وكيف ينظر ماحي بوغان الى غيره من الناس ؟ الاوريون ينظرون اليه على أنه « العربي » أي الانسان الذي ليس له مثل أعلى ، الانسان المتمرغ في الجهل والاهمال والاستسلام ، الانسان الذي لن يتبدل مهما يبذل من جهود من أجل ان ينظف نفسه من الوحل ، الخ • • • وماحي بوغان ينظر الينا على أننا جياع ليس لنا مثل أعلى ، على أننا أقرب الى البهيمة منا الى الانسان ، على أننا اناس كسالى نريد ان نعيش من دون ان نعمل ، الخ • • •

— أنت تكره جميع الناس •

— جميع الناس ؟

وفكر عكاشة لحظة ثم أضاف :

— ربما • • •

— ذلك بعينه هو ما يحز في النفس •

شد عكاشة قبضة يده ، ولوح بها لشاهد خفي لا يرى •

* * *

في ذلك الصباح ، اشتد صياح الاحمر وصراخه ، وجاء بعد لحظة الى عمر فتفرس فيه من اخمص القدمين الى قمة الرأس ، ثم خلط الخيطان التي انفق الصبي ساعات طويلة في تكييها ، فلم ينطق الصبي بكلمة ، وعاد يصلح ما افسده الاحمر من عمله • وكان الحائكون الآخرون يعملون صامتين • ان هناك شيئا يعذب حمدوش تعذيبا خاصا في هذه الايام : لقد اصبح لغزا من الالغاز دون ما سبب ظاهر ، فهو يجتنب الناس ، ولا ينظر الى أحد مواجهة ثم اذا هو يثور على حين فجأة • ان هناك عداوة لا سبيل الى فهمها تثيره على جميع الناس ، حتى ليحس المرء أنه لا يتورع عن ارتكاب أي عنف • كان يغضب ، ويشتم ، ثم اذا هو يهدأ دفعة واحدة •

فلما فرغ عمر من اصلاح ما أفسده الاحمر من عمله ، مضى يجيء بشلل أخرى من شلل الصوف المنشورة في الخارج لتجف • ان رأسه يطن طنيناً موجعا • انه جائع •

طافت في ذهنه خواطر كره وبغض نحو الاحمر • وقال في نفسه ، على غرار عكاشة : « يجب أن أذهب » •

وتساءل بعد لحظة • « ولكن الى أين ؟ ومن أجل ان انتهى الى ماذا ؟ • • » •

فلما عاد مثقلا بكعب الصوف ، انبجس حمدوش وراءه ، وهمس في عنقه يناديه :

— عمر • • •

فأدار الصبي رأسه ♦ ان في عيني الاحمر تعبيرا لم يره الصبي
فيهما قبل الآن ♦

— اضربني يا عمر ♦

قال حمدوش ذلك وهو يقدم للصبي ظهره ، وعاد يردد بصوت
خافت :

— اضربني ، اضربني ♦

فلما رأى ان عمر لا يتحرك ، مضى الى نوله وهو يقول :

— أنا سآمان ♦

ان الناس لا يعيشون الحياة التي يجب أن يعيشوها ، لكأن
سناجا أسود قد وضع في قلوبهم ♦



ان صداقة ملتبسة مترصدة قد نشأت بين حمدوش وعمر ♦
 لقد حاول عمر ان يفهم الاحمر ♦ ولكن محاولاته سرعان ما اخفقت،
 فان الاحمر قد أساء استقبالها ♦ كان حمدوش يثور فجأة ، وتظهر
 عليه علائم الاهتياج ♦ ذلك ما حدث في يوم الاحد التالي ، حين
 مر عمر بالمعمل متعطلا ، فوجده فيها ، فاذا بالاحمر يكيل له سيلا
 من التقرير ، قال له :

— أنت تهتم بأمرى آملا ان تدلني على طريق الخير ، او ان
 تكتشف منه شيئا في نفسي ♦ هذا منك اسراف في طيبة القلب ♦
 ولكنك تضيع وقتك سدى ، صدقني ♦

وكان في لهجة هذه الكلمات ما جعل عمر ينظر اليه دهشا ♦
 قال له :

— ما يحملك على هذا الظن ؟

فأجابه حمدوش مستاء :

— ما هو بالظن ، هو الواقع أراه فيسوؤني ، هذا كل شيء ♦♦

قال حمدوش هذه الكلمات « هذا كل شيء » بصوت قاس
 أدرك فيه عمر عداوة مبيتة ♦♦♦ فلم يقل الصبي شيئا ♦ وما عساه
 يقول ؟

وظل حمدوش يصب عليه غضبه • فتركه عمر بعد لحظة ،
تركه يحضن سخطه في الكهف وحيدا • وفيما كان يخرج سمعه
يقول هذه الكلمات :

— امض ، فلست خيرا من غيرك •

وبعد الظهر ، تحاشى عمر ان يمر بالمعمل مرة اخرى ، وآثر
أن يتجول في الشوارع • المدينة متجهمّة رغم ان الجو دافئ • ان
أول اوراق الاشجار تخرج رؤوسها من البراعم خجلى شاحبة •
ففيما هو في ركن احد الشوارع اذا هو يجد نفسه فجأة
أمام ذلك الرجل الذي كان في تلك اللحظة لا يريد ان يلقاه • كان
حمدوش مقبلا وهو خافض رأسه ، يدوس غبار الارض بقدميه
في ضجر واشمئزاز • فلما لمح عمر ، توقف عن السير فورا ، ومال
برأسه الى جانب ، وشزر فمه ، وتفرس في الصبي وهو مغمض
عينه اليمنى نصف اغماض :

— الى أين أنت ذاهب هكذا ؟

— لا أدري • وأنت ؟ قد أذهب أنا الى عكاشة في المطعم ،

ولكن ...

— دعك من « ولكن » هذه • سأذهب اليه معك • هناك

ما أحب أن أقصه عليه •

كان عمر لا يضمّر عداوة لحمدوش ، وانما كانت تسوؤه
نزواته العنيفة • ان هذا الشيطان الاحمر الذي يحنق كل واحد

من الناس ، ويهين كل واحد من الناس ، كان يبدو عليه أن نفسه تنوء بحمل ثقيل لا يرى ♦

أذعن الصبي ومشى دون أن يقول كلمة ، وكذلك فعل حمدوش سائرا سير عمر ♦

فكان يتعمد في أثناء الطريق أن يدوس على أكوام من الصوالة أو على برك من الماء نافعة ، كما كان يزجج النساء اللواتي يمررن قربه بكلمات ملتبسة ♦ فلما وصلا الى باب المطعم رفع عمر عينيه ونظر اليه ♦ فدفع حمدوش الباب الأخضر ذا المربعات الصغيرة دفعة مستعجل ، واجتاز العتبة ، فما ان خطا خطوة حتى اصطدم بصاحب المطعم الذي كان يجتاز القاعة المعتمة في استرخاء ، وأخذ يشتم ، ودس في يده مع ذلك قطعة من النقد وامره في نرق قائلا :
— هبيء لنا شايا ، وارسل من يجيئنا بفطائر

وقد دخل عمر وراءه ، فلمح عكاشة جالسا على طرف مقعد في احد الاركان ، مسندا كتفه الى الجدار ♦ لم يكن بالمطعم كله أحد غيره ♦ وكان على المائدة امامه كأس من الشاي فرغ نصفها ، وعلبة زرقاء من سجائر باستوس ♦

فلما رآهما سحب من سيجارته نَفَسًا طويلا ، ورد رأسه قليلا الى وراء ، ثم أخرج الدخان نافرا من منخريه ♦ وبيده القابضة على السيجارة لوَّح لهما بإشارة مودة لا تكاد تُرى ♦ فخلع حمدوش سترته ، ورمها على أحد المقاعد ، ثم جلس الى

المائدة التي يجلس عليها عكاشة ، دون ان يدعوه عكاشة الى الجلوس ، ورفع ذراعه فلطم بقبضة يده صدره عدة مرات وهو يقول :

— ها قد جئت اليك يا عكاشة • هذا أنا ، أنا نفسي • أنا شقي ؟ هه •• انني لاعرف ذلك حق المعرفة • ما أنا الا أقذار تداس بالاقدام • ما الذي اسعى اليه في هذا العالم ؟ الى أين أنا ذاهب ؟ لقد فسد قلبي •

قال حمدوش ذلك ، وازداد وجهه شحوبا • كز عمر فكيه • ومضى حمدوش يطلق آهات مختقة ثم صمت • ظل وجه عكاشة موصدا لا يدل على شيء • انه واضح كوعيه على المنضدة ، مسند ذقنه الى يديه الضخمتين • كان ينظر في عيني الاحمر ، وقد انفرجت شفتاه عن اسنانه المتلألئة بابتسامة مبهمة •

سأله حمدوش بصوت مضطرب :

— ما بك ؟

— لا شك أنك قارفت ذنبا من الذنوب حتى أصبحت على ما أنت عليه من حق •

لم يجب الاحمر بشيء • ناداه عكاشة :

— حمدوش

فاتنفض حمدوش ، واكتسى وجهه هيئة المحاصر • قال له عكاشة مدمدما :

— أنت طيب القلب يا حمدوش ، اعرف هذا •

فصاح حمدوش وهو زائغ البصر :

— طيب القلب !

ثم نهض كالمتعوه ، وأخذ يصيح بصوت عال :

— اسمعوا يا مخلوقات الله ♦♦♦ ان قلبي يحب كل ما هو

خير ونبل !

قال ذلك وشخر عدة مرات • ثم لم يلبث ان همس يقول في

تدفق بصوت جاف :

— ولكن انتظر ايها الاخ • انتظر ان تعرف ما فعلته اليوم !

فحدق اليه عمر يرى ما يلوح في وجهه من تصعر مضطرب •

ولكن حمدوش تابع يقول :

— في هذا الصباح ، في ساعة مبكرة من هذا الصباح ، ذهبت

الى ماحي بوغانان أطلبه ببضعة قروش • فرأيت عند هذا الخنزير

شريكه المفتش نفاف • فما ان أبصر بي نفاف حتى رفع سبابته

الى أنفه وباعد عينيه ، وتفضل ففتح فمه وقال :

— « أأنتم جميعا ، هنالك ، سكيرون ولصوص وما لا يعرفه

أحد الا الشيطان ♦♦♦ أفضل شيء هو ان يوضع قطيعكم هذا

الجربان في السجن • ان صديقي — وأشار بابهامه الى ماحي

بوغانان — ان صديقي هذا الذي تراه يحتمل منكم ما لا يحتمل ،

فهو رجل ذو فضل • ثم انك أنت ، عدا ذلك ، بهيمة من البهائم ♦♦

« نعتني بهذا النعت اللطيف ، وأمسك بي من ياقة السترة
وهزني هزا • ثم غضن جبينه • فأحسست عندئذ ان الامور سوف
تجري على غير ما يرام •

« — قل لي ، ان بينكم رجلا تافها حقيرا اسمه عكاشة ...
عكاشة ابن مراح • • • هه • • • أليس كذلك ؟

« وفكر قليلا ثم نظر اليّ على حين فجأة نظرة شزراء وهو
يسأل :

« — ماذا يقول هذا الرجل ؟ تكلم • يقول « اتنا لن نحصل
على شيء ولن تتبدل احوالنا ما لم نقلب الامور عابها سافلها •
يجب أن نغير الوضع الذي نحن فيه • • • »

« ذلك ما يقوله هذا الرجل •

« — ماذا ؟

« ورشقني بنظرة كالسهم •

« — ان نغير الوضع الذي نحن فيه • • • ماذا ؟

« — آ • • • لا ادري • • • انه لم يقل هذا الكلام •

كان عكاشة مغمضا عينيه لا يتحرك • وسيجارته ملتصقة
بشفته لا تتقد • غير انه لم يلبث ان مصها فخرج من ذلك
صفير خفيف • ارتعش عمر • ثم نفث عكاشة الدخان ، فاخفى
وجهه الكبير ذو اللحية وراء هذه السحابة •

عكاشة صامت ، وحمدوش يحدق اليه في نهم • ثم اذا
 بحمدوش يضرب المائدة بقبضة يده المشدودة ضربة قوية اوجعته ،
 فينتفض على المائدة كل شيء : القدح والسجائر • ان عمر يرقب
 المشهد مشدوها • وفجأة استبدت به رغبة لا سبيل الى مقاومتها
 في أن يضحك ، وفي ان يضربه أيضا ، وفي ان يصيح به « كفى » ،
 لكنه كان في الوقت نفسه يخشى ان يفتح فاه • نظر الى صاحب
 المطعم الذي كان يغفو على كرسي وراء البسطة وقد مال رأسه
 على كتفه ، فبدا له كل شيء اكثر سقما •

وتابع حمدوش يقول بصوت أبح أبيض :

— وسألني نفناف مستعلما أيضا

« — والآخرون ؟

« — الآخرون ؟ (نظر حمدوش الى ما حوله خلصة بطرف
 عينه ، وخفض صوته) • الآخرون ؟ لا شيء » هكذا قلت له •

« — والسجين القديم ؟ ان بينكم رجلا كان في الماضي سجيناً
 محكوما عليه بالاشغال الشاقة ، اذا لم يخطيء ظني • هو أيضا • •

« — هو أيضا ماذا ؟

« — يحرك لسانه ♦

« — أهذا كل شيء ؟

« — نعم هو كل شيء ♦

« — قال ذلك وأشهر اصبعه فغرزها في صدري ، ثم أضاف :

« — حذار يا أحمر ♦

« — فخفضت رأسي » ♦

قال الأحمر هذه الكلمات وهو يتكئ بيديه على المائدة
الوسخة اللزجة منحنيا ، وينهض نصف نهوض ♦ كان يميل الى
أمام كمن يستجمع قواه ليشب ، ثم قال ينفخ في وجه عكاشة
بصوت لاهت :

— هل فهمت الآن ؟

فاذا ببريق يشتعل في عيني عكاشة على حين فجأة ، ثم ينطفئ
بسرعة كما اشتعل بسرعة ♦ قال عكاشة وهو يهز رأسه ويقطب
حاجبيه ، وقد لاح في وجهه الغناد :

— ليس لهذا كبير شأن ♦

فوثب حمدوش على قدميه كأن نابضا يدفعه الى فوق ، وأراد
أن يعترض ♦ ولكن عكاشة وضع يديه على المائدة هو الآخر ،
قبل ان يقول حمدوش كلمة واحدة ، واكد يقول له بلهجة واثقة :

— ان لك قلبا طيبا يا حمدوش ، انك تحرق دماءك حرقا ...

— لماذا تقول لي هذا الكلام ؟ لماذا ؟

وهز الاحمر رأسه في حزن شديد ، حتى خيل الى عمر أنه
سينفجر باكيا منتحبا •

أجابه عكاشة ببطء :

— لتعلم هذه الحقيقة •

فهدأ حمدوش فجأة ، وتمتم يقول بصوت خافت ، وقد لاح
في وجهه الوجوم :

— ليتني أمضي أتابع مصيري في غير هذا المكان • يجب عليّ
أن أذهب • • يا لسوء طالعي •

وتبللت نظراته التي يحجبها نوع من دخان احمر • وأخذ
يحدث نفسه كأنما هو نسي وجود عكاشة وعمر •

ولكنه لم يلبث ان استيقظ من ذهو له ، فقال عندئذ فيما
يشبه الانين :

— لا ، مستحيل •



دخل الى المطعم رجل يرتدي ثياب العمل الزرقاء وينتعل
حذاءين باليين ، وهو يحمل بيديه سبحة من الفطائر عقدت بجريدة
نخل ، فأفاق صاحب المطعم من خدّاره ، ونهض فتناول ابريقا كان
ينقع فيه الشاي ، واتجه الى الرجل فأخذ من يديه الفطائر بطرف
سبابته ، ومضى يضع الابريق والفطائر على المائدة امام الاصدقاء
الثلاثة ، بينما كان الرجل الدخيل يعود ادراجه دون ان ينبس
بكلمة •

صاح حمدوش يقول :

— عظيم •

ورفع الابريق في حماسة ، فصب منه دفقة عارمة في كأس
عمر أولا ثم في كأس عكاشة ، وملاً بعد ذلك كأسه • ولم ينتظر
لحظة واحدة ، بل حمل الى فمه فطيرة من الفطائر الساخنة فبلعها
لقمة واحدة ، والحق بها كأس الشاي المحرقة التي صبها لنفسه •

قال يتمتم وهو منتفخ الفم :

— أنا مسرور أيها الاخوان •

وغمز بعينه • لقد كان فرحا حقاً •

— آه ... أنا مسرور • انني لا أعرف ما الذي أحسه في أعماق قلبي •

قال ذلك وهو يلطم صدره في مكان القلب ، بقبضته المشدودة
ثم مسح شفتيه وعاد يقول بلهجة أهداً :
— حاولا أن تفهماني •

فأمّن عكاشة على كلامه بحركة من رأسه • كان عكاشة
يأكل هو أيضا •

صاح حمدوش يقول بلهجة الظفر :

— ها ... هل رأيت ؟ هو اذن صحيح ما قلته • ان في نفسي
شيئاً من كل شيء ، لو علمت ... ولست ادري اين اضع قدمي •
النتيجة : لا اصلح لشيء • عبثا طوفت في كل اتجاه : لا شيء •
لا الاخلاق تجدي ولا الحض على الخير ... لا شيء من ذلك
كله ينفع • لست أتورع عن شيء ، لست اتورع عن بيع العالم كله
ببصلة ، كما يقال ... حتى ديني لا أتورع عن بيعه ببصلة •
يالها من تعاسة • انني أشبه بالدوارة التي تدل على اتجاه الرياح
ادور ثم أدور ، في جميع الاتجاهات •

كان حمدوش يتكلم من غير حذقة ولا ادلال • لم يعرف عمر
كيف يفكر • ان هذا كله يهز نفسه هزا قويا • انه مهموم حيران •
وكان عكاشة يسحب من سيجارته أنفاسا طويلة ، وقد أغمض
جفنيه نصف اغماض ، ثم لا ينفث الدخان الا بعد مدة ، فاذا نفثه

انتشر على شكل حلزون الى غير نهاية • وكان هذا الضباب الحاد
يلفهم جميعا • وكان جفناه يرتعشان في بعض اللحظات ، فيطبقان •
وكانت غضون قاسية تحدد جيئنه •

وانتصب فجأة يقاطع الاحمر بقوله في خشونة :

— كفى حديثا في هذه الامور ! هذا الكلام كله قد سبق ان
أضجرتنا بترديده •

فرفع حمدوش كتفيه الى أذنيه ، كمن صُـب على رأسه قادوس
ماء بارد •

وقال عكاشة مقرّعا ، وقد ظهر في وجهه الاستياء :

— انا نمشي حفاة ، وأسمالنا لا تكاد تخفي ما بنا من بؤس ،
وليس في بطوننا ولا في رؤوسنا الا فتات وأوضار •

فأخذ حمدوش يحك نقرته وهو ينظر اليه في دهشة • تتمم
يقول :

— لست أخالفك في الرأي •

ومد يده الى علبة سجائر الباستوس ، رغم أنه ليس من عادته
أن يدخن ، فسل منها سيجارة وأشعلها من العقب الصغير الذي
كان عكاشة يقبض عليه بين السبابة والابهام • يسحب من
السيجارة نفسا ثم نفث الدخان كله على الفور ، وعاد ينشق نفسا
آخر • قال بلهجة الاهتمام والاعجاب :

— ما أكثر ما تدخن !

— أدخن ما كان معي سجائر ، حتى اذا نفدت توقفت عن

التدخين ♦♦♦

فلما سمع الاحمر هذا الجواب انفجر يضحك ضحكا قويا ،
وهو يقرع بقدميه الارض ، ويهز رأسه ، وينثني نصفين ♦ قال :
— هذا اسمه كلام حقا ♦

ثم لم يجدا بعد ذلك ما يقولانه من كلام ♦ ان حمدوش جالس
على مقعده وهو في حالة عصبية ♦ واضح ان هناك فكرة تشغل
باله ♦ فتارة يقرب رأسه من عكاشة فيتفرس فيه ويركز عليه
اتباهه كله ، وتارة يشيح بوجهه ♦ والظلام يكاد يخيم في
المطعم ♦

أخذت الاشياء تغييم ♦ قال حمدوش وهو ينهض بوثة :

— يجب ان أذهب الى « هناك » ♦

ففهم عمر ما يعنيه بقوله « هناك » ♦ ان كلمة « هناك » هذه
تعني زازا التي أودعها الاحمر قلبه ♦

وأضاف حمدوش شارحا ، دون ان يسأله أحد شيئا :

— يجب أن أسهر عليها ♦ ليس لها في هذا العالم غيري ♦
وستظل ، عندي ، الوحيدة ، الاولى ♦♦♦

قال ذلك وهرع يخرج من المطعم ♦ وبقي عمر وحده مع
عكاشة ♦

وبعد قليل خرجا من المطعم هما أيضا • وفيما كان يطوفان في المدينة على غير هدف ، صامتين ، يستنشقان اواخر انسام النهار ، قال عكاشة على حين فجأة •

— عمر ، ما قولك في أننا مسؤولان عن هذه الحياة البائسة التي يعيشها اخوتنا ؟

وضحك تلك الضحكة العذبة ، الخجلى قليلا ، المعهودة فيه مع أنها لا تكاد تشبهه • واستدرك يقول :

— طبعا ليس ذنبنا ان الناس يحيون هذه الحياة الشقية • ومع ذلك أحس دائما ان لنا في ذلك يدا • لن يستطيع احد ان ينتزع هذه الفكرة من رأسي •

وصمت مرة أخرى ، ثم أضاف بعد بضع خطوات :

— أظن اننا نكون مذنبين قليلا اذا لم نفعل شيئا من اجل ان نوضح للناس ما يجب عليهم ان يعملوه حتى يكفلوا لانفسهم حياة أفضل •

قال عكاشة هذه الكلمات بنبرة توشك ان تكون نبرة مذلة • وأضاف :

— لك أنت أقول هذا الكلام ! ..

فابتسم عمر • كان الليل قد هبط • وهذا ضباب أسود رقيق
يتموج في الهواء ، ويتخلل المنازل والمارة والأشياء ، التي تبعد
عنك كلما اقتربت منها • التفت عكاشة الى عمر وابتسم مثله •
ثم قال :

— كأن هذه البلاد لا تتوقع من رجالها شيئا •

ودس الحائك يده في إحدى جيوبه ينبشها ، ثم دسها في
جيب أخرى ، ثم سأل صاحبه بمرارة لا تتفق ولهجة المرح التي
كانت تشيع في كلماته :

— أليس معك سيجارة تعطينيها ، أليس معك أي شيء ادخنه ،
أي شيء ولو كان سما ؟

كان عمر قد اخذ يجرب التدخين منذ مدة ، خفيةً ، فهو
يشتري سيجارتين أو ثلاثا من صغار البائعين ، وفي جيب سترته
الآن واحدة • مد عمر يده الى الجيب الصغيرة ، فسل منها
السيجارة في رفق ، فتناولها عكاشة ، فأشعلها بعود ثقاب ، وجعل
يدخن • ان الظلام يغيب وجهه الآن •

قال عمر سائلا في تعجب :

— كيف لا تتوقع هذه البلاد من رجالها شيئا ؟

فحرك عكاشة يده بإشارة في الهواء • وقال :

— كأنها لا تتوقع شيئا ...

ثم أضاف بلهجة فيها الحنم كله والاخوة كلها :

— ... شيئا عظيما •

— لا بد أن هناك أسبابا تحملك على هذا الاعتقاد •• لا بد

أن هناك أسبابا تدفعك الى هذا الكلام ...

فقاطعه الحائك يقول :

— أسباب ؟ أتظن ان هذا ما يزال له وجود ؟

فأجابه عمر :

— ولماذا تعتقد انه لم يعد له وجود ؟

فالتمعت عينا عكاشة في الظلام ، ونبع من وجهه الاسود صوت أجش قليلا ، ساخر قليلا ، يقول :

— طوفت في البلاد ، وتحدثت مع كثير من الناس •

— في أي شيء يفكرون ؟

— ذلك ما سألتهم عنه • قلت لهم : ماذا تعملون ؟ فيم تنفقون

أيامكم ؟ فاذا كل ما أجابوني به لا يمكن ان يسمى شرحا ولا

بداية شرح •

واستأنف عكاشة بعد لحظة :

— اليومَ انما ينبغي أن يسير المرء في الطرقات محاولا ان

يعرف ما يدور في أذهانهم •

قال ذلك وهو يُرقص رأس سيجارته المتوقد امام عينيه •

وأضاف متتهدا :

— انها للذة أن يدخن المرء سيجارة حقيقية : تدخنها فاذا براحة مقدسة تغزو قلبك ، وفي وسعك أن تهزها ، وهي كذلك سلاح ، هي نار تشق الفضاء • آه • ليت لجميع الناس سلاحا حقيقيا •

قال عمر وقد تقلص حلقه قليلا :

— لم السلاح ؟

فأجابه الحائك بقوله :

— آ • • • انها للذة دائما ان يملك المرء سلاحا حقيقيا •

وسحب من سيجارته أنفاسا حارقة ، ثم توقف يشرح بصوت خافت :

— يخطر ببالي أحيانا أنه يكفي أن يملك جميع الناس سلاحا •

انهما يسيران الآن في الظلام دون ان ينطقا بحرف • والمدينة من حولهما تسترخي ، متهيئة لراحة الليل الكبرى • وقع الاقدام يقرع الارض في كل مكان ، وما ينفك يتجدد من شارع الى شارع ، في فتور الليل الساجي • وأطل الشارع الذي كانا يسيران فيه على مقهى ينيره سيل من الضوء ، فهو يبدو من بعيد كأنه يفيض شمسا •

قال عكاشة :

— عم مساء يا أخي •

— عمت مساء •

كان عمر سائرا يتفرق من البرد في هذا الفجر القارس ،
وقد وضع يديه في جيبه • ان الريح تثير تحت خطواته غبارا
أشهب ، وتجرف مزقا بالية من جرائد ملطخة ، وئثرات خشب
وأوراق أشجار • فلما وصل الى حيث يرى المعمل من بعيد احتار
وارتبك • ذلك أنه رأى ماحي بوغان واقفا يحرس باب المعمل
وقد برزت كرشه الضخمة • أحس الصبي بانزعاج لم يستطع كبجه ،
ولعن الرجل • ان عليه ان يمر تحت أنف المعلم ، فكيف السبيل الى
تحاشيه ؟ غير أن ماحي بوغان كان يدعو عليه أنه ينتظره ، لا يحفل
بهبات الريح الصقيعية التي تصفع جلبابه المصنوع من وبر الجمل •
فلما صار امامه سمع أنفاسه التي تخرج من صدره في عناء •
كان المعلم يتنفس تنفسا ثقيلا •

قال يتذمر بصوت جاف :

— ها أنت ذا ••• الآن تصل ؟ ••• ما ينبغي ان يزعج المرء
نفسه •

وتتحنح يكشط حلقه المتسخ ، ففاحت في زفيره رائحة الخمر •

— ولا سيما اذا لم يكن هناك عمل •• احم ••• هيا •

• وكانت نظرتة المترنحة متشبثة بعمر •

— سيرك أنت أن لا يكون هناك عمل •

وتمتم يقول بين أسنانه :

— كسلان ، تنبال •

انه لا يقوم بأية حركة يحتمي بها من الريح • وكان في وسط
جبينه أثر لطفة يسودها البرد •

— اعترف بالحقيقة ، أليس سيرك أن لا يكون هناك عمل ؟

ثم ربت في لطف على كرشه التي اخذت تتراقص تحت الجلباب
وهو ما يزال منشبا نظراته في عمر •

— اني أشد منك خبثا ومكرا • فحذار •

كان صوت ماحي بوغانان يعلو ويصفر ، ووجه الصبي يستقبل
أنفاسه النتنة • وعبثا تهب الريح على الرجل شديدة عاتية ، فان
قرصاتها الباردة لا تحرك فيه ساكنا •

وظل يهز كرشه الضخمة بيديه في غير حياء •

أخذ الصبي يفقد هدوءه شيئا بعد شيء • انه يشعر بالخجل
والعار أمام هذا الرجل السكران • وادخل عنقه في كتفيه •

— أنا ذاهب الى العمل يا معلم •

قال ذلك وهم أن يغور في فم الكهف المظلم ، لولا انه سمع
المعلم يصيح به فجأة :

— قف • أنت الآن مستعجل ، هه • لا ، يساعد البك ••
ارجع • سوف تتناقش معي قليلا • ألسنا صديقين ودودين ؟
أليس بيننا صداقة كبيرة ؟

فعاد عمر ادراجہ ، وجعّد بوغان وجهه •
كانت أصوات الحائكين الحائقة تتصاعد من الكهف ، وقد
علاها جميعا ذلك الصوت المقاتل الملهب المعاند ، صوت حمدوش •
قال عمر للمعلم :

— سوف يصيبك برد يا معلم •
وفي هذه اللحظة ترنح ماحي بوغان ، وكاد يهوي على الارض
لكنه استطاع أن يسترد توازنه فانتصب امام الطفل متكبرا ،
ومد عنقه في جهد • قال متتهدا :

— أهذا هو الكلام الذي يسعفك به عقلك ؟

— ذلك ••• أنك اذا أصبت ببرد مرضت •

— ما هذا الهراء ؟

— أقول انك اذا •••

فمط المعلم شفتيه ، وأرجح رأسه على صدره •

— لماذا تقول لي هذا ؟

كان ينظر الى عمر من خلال حاجبيه ، باتتباه مفرط هو ذلك

الالتباه المعهود فيمن أخذ منه السكر كل مأخذ ، تابع يقول :

— لماذا تقول لي هذا ، أنا معلمك ؟

خاف الصبي •

— هه ؟ لماذا ؟ لماذا تقول لي هذا أنا معلمك ؟ لماذا ؟ أنت مشفق علي ؟ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يؤكد لي أنك لا تخفي شيئا آخر ؟ من ذا الذي يؤكد لي أنك لا تتمنى لي الموت مثلا ؟ هه ؟

قال ذلك وهز رأسه •

— وهبك مشفقا علي ؟ يا للشقاء ! أمثلك يشفق على مثلي ؟ ••

وأطلق شتيمة كبيرة ، ثم القى على ما حوله نظرة غائمة •

— آه •••

وانقضت عدة ثوان تساءل عمر خلالها عما عسى ان يحدث •

وفجأة قال بوغنان مقرعا :

— ماذا يصل أسبابك بأسبابي حتى تشفق علي وترثي لحالي ؟

وأنشب يده في عنق الصبي •

— اذهب ••• واعلم أنه ليس على هذه الارض الا أوغاد ••

ليس في وسع طرح من نوعك ان يبرهن لي على خلاف ذلك ؟
أأنت تشفق ، أنت ؟ ما أنت الا وغد •

وردد يجأر قائلا :

— وغد •

وأخذ المطر ينزل رذاذا رقيقا • وهدأت الريح قليلا ، فهي تنوح الآن نواحا ضعيفا • وماحي بوعنان ساكن لا يتحرك كأنه كتلة من حجارة • ان بريقا أخضر قد اشتعل في عينيه الدهنيتين • وانتفض فجأة يقول :

— اذهب ••• ما وقوفك هنا ؟

فاندفع عمر يغور في المدخل المظلم ، ويهبط درجات السلم الاثنتي عشرة دون ان يراها • ومضى الى مكبه متعثرا •

اختفى المعلم • انه لم يجرى الى الورشة في مثل هذه الساعة المبكرة من الفجر ، يدفعه ما يدفع السكير الى مثل ذلك ، الا وهو خارج من ليلة قصف •



— في الليلة الماضية سكرنا سكرة كبرى • وفي الليلة التي قبلها أيضا • وانتهت السكرتان كلتاهما بالضرب • واستمر الضرب في هذه الليلة أيضا • • ثلاث ليال متتالية • • يا للانسان البغيض ! لم يكن قد أفاق من سكره تماما حين كان هنا منذ قليل •

ونظر مصطفى رزاق الى الحائكين واحدا بعد واحد ، وفتح فمه فتشأب ثم تنهد يقول حاسدا :

— يا له من رجل ، معلنا هذا ، هه ؟

قال شول :

— نعم • هل تجدون في المدينة كلها رجلا مثله ؟ أليس على حق ؟ ان ماله هو ملكه يفعل به ما يشاء ، ولا يدعه يعفن في خزانة من حديد •

وكان شول يرتدي صديرة يلبسها فوق القميص ، وبنطلونا يتموج بلا حزام • ان فكرة تبديد المال في القصف واللهو قد أثارت حاسته • قال :

— يكسبه الآن وينفقه بعد لحظة • المال يسيل من بين اصابعه • انه لجدير حقا باسم الماخن • لو عملنا ليل نهار من

أجل ان نهىء له من الدراهم ما لم ير أحد منا مثله في حياته
كلها ، لعرف كيف يبده على الفور • انه لرجل •

قال قوطي الامين منتقدا بقوة :

— يعرف كيف ينفق في الاثم ، أما بعد ذلك ، فياويلنا ! • •
انه يماطل في الدفع اسبوعا بعد اسبوع ، ثم لا ينقدنا قسطا من
أجورنا الا في أيام الاعياد • لكنه يأمر بأن نحيك له أربعين بساطا
في اليوم ، أي ما يساوي مائة وستين كيلو غراما من الصوف •
— انه ليُسيل لعابكم أيها الصالحون الاتقياء • حاولوا ان
تفعلوا مثله • ولماذا لا تجرؤون على ان تقولوا له شيئا حين يكون
هنا ؟

قال شول ذلك ، وهو يرشق معارضه بنظرات متقدة حائقة •

— انه يعرف كيف يلهو ، أما أنتم ، فمن ذا الذي يستطيع ان
يقول لماذا تعيشون ؟

لم يجب قوطي الامين لا بنعم ولا بلا ، وانما التقى حاجبا
عند منبت الانف في ثنتين ، ثم مال على نوله ، واتجه باتباهه
كله الى خيط اللحمه يدسه في المكوك •

وارتسمت على الوجه النحيل ، وجه شول ، ابتسامة ظفر
خبيث • قال عكاشة :

— من يسمعك يحسبك فخورا • • • كأنك انت من يدور عليه
الكلام •

— كيف ؟ أليس هناك ما يدعو الى الفخر ؟ أما أنا فأؤكد
أن هناك ما يدعو الى الفخر كل الفخر • هذا رجل لم يكن يملك
قرشا واحدا • أصبح أم لا ؟ كان عاملا يعمل بأجر ، مثلي ومثلك ،
كان شخصا لا يساوي بصقة • ثم ماذا أصبح ؟ أصبح كبار
تجار المدينة اصدقاءه ، وأصبح وجهاء الفرنسيين يحترمونه ،
وأصبح أحد مفتشي الشرطة رفيقا من رفاقه • حاول أن تمكر
به يضعك في السجن في مثل ملح البصر • وهو مع ذلك لا يعرف
القراءة ولا الكتابة ، مثلي ومثلك •

كان شول يقول هذا الكلام في حماسة ما تنفك تزداد ،
وصراخ ما ينفك يقوى •

— أتقول انه سرق ، وربما قتل ؟ انه ليتفق كثيرا أن يقال عن
فلان او فلان من الناس ، من قبيل الحسد ، انه سرق او قتل أو
دس سما ، مع ان الامر لا يعدو أن يكون قد نجح • نحن أناس
لا نحب أن يواتي الحظ أحدا • حتى اخوتنا في الشقاء لا يطيقون
أن يروا احدا منهم يخرج من حالة البؤس التي هو فيها •

وأمسك فجأة عن الكلام ، والقي نظرات حاقدة سقطت على
الصبية المكبين ، فانفجر يصيح بهم حانقا :

— كان ينبغي أن تفرغوا منذ ساعة يا اولاد النحس •

قال عكاشة :

— هو المال الحرام يذهب كما أتى •

فضحك عثمان الاحمر ضحكا قويا ، ثم نادى يقول في الصمت
الشامل :

— الموت • آ • الموت • كل شيء صائر اليه •••

فانقبض صدر عمر •

وفي آخر الكهف ، أخذ يغني صوت مرهق مكدود ، يكاد
يكون صوت امرأة :

لم يبق لي في حياتي

سعادة ارتجيتها

وانهمك العمال في عملهم بحماسة آلية •

ولت حياتي ضياعا ••••

يا موت هيا الي

وتنهد أحد الحائكين ينادي :

— يارب •



كانا يسيران في عبق الربيع ♦ عكاشة يتكلم ، وخطاه تبطؤ
في بعض الاحيان ♦ وكأنا لاحظ فجأة ما يحيط به ، فاذا هو
يتوقف عن السير توقفا تاما ، فيرفع أنفه ، ويلبث عدة لحظات
ينشق ويتنسم الهواء الجديد ، في نشوة غريبة عذبة محرقة ♦
قال :

— الشعب ملكوت الله ♦♦♦ الشعب روح العالم ♦ ما من
احد علم الشعب ، ومع ذلك يحمل الشعب الحقيقة في ضميره ،
وينشرها بكلتا يديه في سحاء ♦♦♦
ونظر عكاشة الى عمر بطرف عينه ، كأنما هو يفضي اليه
بسر ، قال :

— منذ مدة طويلة ذهبت أطوف في الطرقات ، أيها الصغير ♦♦
فرأيت الشعب ، وعرفت الشعب ♦ وأصبحت منذ ذلك الحين لا
أستطيع أن أعتاد الحياة الساكنة ♦ ظننت في أول الامر انني
سأستطيع ذلك ، وتجلدت وكأبرت وجربت صوراً شتى من الحياة ،
فلم يجدني ذلك كله ♦

قال ذلك وصوته يزداد بحة ، ثم أضاف :

— وأنا اليوم مضطر الى الاعتراف بأنني أصبحت لا أطيق الحياة الساكنة • لا أدري ما الذي يحدث لي ، لا أدري هل يجب علي أن أبقى هنا ••• لا أدري ••

وكان هبوط الليل يقترب • وكانت تجري في السماء غمامات ما تزال مذهبة • وكانت الحركة التي تستبد بالناس عند الغسق قائمة قاعدة •

— كل شيء في المدينة بارد سييء • البائع في المدينة ملك • ويل لمن يريد في المدينة أن يثور على جنس التجار • ان المدينة هي العالم الذي يعيش بغير أمل •

كان عمر ينظر اليه خلسة وقد انقبض قلبه • فمال عكاشة عليه وهمس في جوف أذنه :

— عاشت الحرية أيها السيد • ينبغي ان نمضي باحثين عنها في الطرق • الناس هنالك يكرمون اخوتهم •

تفرس الصبي في وجهه تفرسا قويا •

— لك أنت أقول هذا الكلام ، أيها الطفل •

وظلا يتجولان الى أن التبس الظلام ، فافترقا : ذهب عكاشة الى مقهاه المؤلف ، وعاد عمر الى بيته •



— دع الشعب • فيم تتكلم دائما عن الشعب ؟ دع الشعب يتألم •

قال حمدوش هذه الكلمات وهو يطم شففيه كطفل حاقد •
— دعه في فاقتة • أهو يتألم ؟ ولكن ما الذي تستطيع أن تفعله له ؟

ولم يجب عكاشة ، فاستأنف الأحمر يقول :

— دع الشعب ، وليعش كل واحد على نحو ما يريد • • على نحو ما يحب • الرجل الذي سيخرجنا من الحال التي نحن فيها ، لم يخلق بعد •

ثم أغمض جفنيه نصف اغماض ، وراح يهتز ذات اليمين وذات الشمال كما يفعل مرتلو القرآن • ان عمر لم يشعر في يوم من الايام بأنه قريب من هذا الشخص المحير ، كما يشعر بذلك في هذه اللحظة • كلماته المرة ، نبرته التي تدل على العذاب ، كل هذا • • • •

قال عكاشة :

— جميع الناس يتكلمون كما تتكلم •

— كما أتكلّم ؟ من الذي يتكلّم كما أتكلّم ؟

— جمع لا يحصى عدده •

والح الأحمر يسأل :

— ولكن من ؟ من ؟

— أناس حمقى •

فجحظت عينا حمدوش ، وعوى كما يعوي ابن آوى ، وانتصب واقفا بوثة واحدة • ان ذؤابته الحمراء المتقاتلة تلتمع كأنها مشعل • وكان لا بد من اربع سواعد قوية ، هي سواعد حمزة وحسين ، من أجل ان يمكن الإمساك بهذا الانسان الذي ركبته الجن ، ومن أجل رده الى القعود حيث كان •

وأراد حمزة أن يصلح بين المتخاصمين ، فقال :

— لا أحد بيننا شرير اذا ما أخذ على حدة (كان صوته الضخم يجري بالكلام كالغناء) • واذا اتفق ان رأينا أحدا شريرا ، فانما يكون ذلك على غير ارادة منه ، اذ لا يستطيع أحد ان يسيطر على مصيره • الانسان الذي لا سلطة له على القوى التي تسحقه ، لا سلطان له على نفسه • ولكن اذا جاء اليوم الذي يحطم فيه كل شيء ، تبدل الامر •••

كان الحائكون يسمعون هذا الكلام ، فلا يؤيدون ولا يشجبون • وقد ساق حمزة أقواله ، بذلك الصوت الاسيان ، بتلك النبرة المشفقة التي لا يعرفها أحد في غيره •

وتابع يقول :

— على أن في الدنيا قلة من الناس جبلت على الشر •• فهو لاء
••• سيلقون جزاءهم عاجلا أو آجلا •

تقلص وجه عكاشة ، وكز فكيه • فلما رأى حمزة هذا التعبير
الذي ظهر في وجه زميله ، ابتسم من خلال كشش لحيته الشهباء
ابتسامة تدل على كثير من سلامة القلب •

وكان العمال الآخرون يأكلون وهم يتابعون الكلام بوجوده
موصدة لا سبيل الى النفاذ اليها • كانوا كأنهم يستنكرون في
قرارة نفوسهم هذا الاضطراب كله • لقد امتلأت رؤوسهم بأحلام
غامضة ، فهم يتأملون هؤلاء المثرثرين دون أن يظهر فيهم أي
اهتمام بهذه الاحاديث الطويلة ، كما لا يظهر فيهم أنهم يرون
هذه الجدران المحيطة بهم ، ولا هذه الانوال المتعبة ، ولا ذلك
الظل الثقيل الباعث على الغيـان الذي يثقل على أكتافهم •

قال الاحمر معقبا ، وما يزال شعاع من جنون يسكن نظرتة :

— نحن لا نصنع لا خيرا ولا شرا ، وانما نحن قابعون نستنقع
بين الاثنين في غير جدوى •

وقال حسين طرف ، الملقب بالقنفذ ، قال يسأل عكاشة :

— قل لي اذا أراد أحد ان يسافر الى فرنسا سيرا على قدميه ،
هل يستطيع ذلك ؟

فأجاب المسؤول :

— لا •• فالذي أعرفه هو ان عليه أن يعبر البحر ، والبحر ،
كما تعلم ، لا يمكن عبوره سيرا على الاقدام •

فلم يضيف حسين طرف شيئا ، وانما غاص في الافكار التي
أيقظها في نفسه جواب عكاشة • انه يحاول أن يعرف هل أجابه
رفيقه صادقا أم هو كذب عليه وسخر منه • ان هذا الرجل الاعرج
يشبه منظره منظر شجرة تالفة • كل ما فيه أسود : الزغب والجلد
والنظرة • أما شعر رأسه الذي يحتل جزءا من جبينه العنيد ، فانه
منتصب انتصاب أشواك مهددة •

وكان حمدوش الذي ما يزال حاتقا كل الحق من مشاجرته
مع عكاشة يعذب الارض بطرف قطعة من الخشب في غضب
شديد •

قال يدمدم :

— لا أحد يعلم شيئا ••• وأنت تنزل نفسك منزلة عراف
لا يجهل شاردة ولا واردة •

فأجابه عكاشة وهو يشير برأسه الى عمر :

— اسأل الصبي يجبك • لقد تعلم ، هو ، في المدرسة •

فقال عمر :

— نعم ، يجب عبور البحر •

فقال حمدوش ثائرا :

— لشد ما تضجرني صحبتكم !

الجزء الثالث

— ١ —

— لقد تجبرتم حتى أصبحتم لا تؤمنون بالله ، ولكن كيف يمكن ان يثق المرء بكم بعد الذي سمعه من أقاويلكم وبعد الذي رآه من سلوككم ؟ على أنكم ما ينبغي أن تؤاخذوا ، فلست أظن أنكم تتحدثون حديث الجد أبدا ♦

قال قوطي الامين هذه الكلمات وتأوه ، ثم زم شفثيه زما قويا ، وأخذ يفكر ، ثم اغمض جفنيه ♦

— لست أدري ما هذه الفكرة المجنونة التي تستبد بالناس ، انهم يسرفون في الحديث والاستماع ، ويبحثون ثم يبحثون ثم ما ينفكون يوغلون في البحث في هذا الظلام الذي يلفهم ♦ ولا شك أن هذا هو ما ينشأ عنه الاثم ♦

ان نبرة من عذاب قد تسلفت الى صوته ، حتى ليحس المرء أنه مستعد لان يغفر للناس رغم أنه ما كان له أن يفعل ذلك منشرح الصدر ♦

واستأنف يقول بصوت خافت :

— ماذا يريدون ؟

فنظر اليه حمزة خلسة وهو يتقدم بحاجبيه الى أمام :

— يريدون أن يطعموا من جوع ، وان يعاملوا خيرا مما تعامل
البهائم •

فنهض قوطي الامين ، وابتعد عن الجميع دون ان ينبس بكلمة ،
ومضى يقعد بعيدا في ركن من الاركان •

لكنه قال من مكانه سائلا :

— لماذا لا تكفون عن الشكوى ما دمتهم ، أنتم أنفسكم ،
لا تعلمون شيئا من أجل ان تتبدل حياتكم ، وما دمتهم لا تحترمون
الانسان الذي فيكم ؟ ان الشكوى يمكن ان تكون منكم أيضا •

قال حمزة :

— صحيح •

— اذن لماذا لا تعمل شيئا ؟

— اذا كان الامر أمري ، فأنا أيها الاخ مستعد لان أفعل كل
ما يطلب الي فعله •

قال حمزة ذلك وباعد ذراعيه وهو يضيف :

— ولكن ما عساي أصنع وحدي ؟

— المرء يحاول •

فhez حمزة رأسه ليقول لا ، ثم أضاف يشرح بلهجة متأنية :

— لا أحد منا قادر وحده على أن يبدل الواقع •••

— بل قل لا أحد قادر على أن يعارض قدره •

هكذا هتف يقول عباس صباغ الذي كان جلس الى نوله ،
وقد أظلم وجهه •

وحاول حمزة أن يناقش ، ولكن محاولاته ذهبت سدى •
كان واضحا ان الحائكين الآخرين لا يكاد يختلف تفكيرهم عن
ذلك ، حتى لكأن تصور حياة أقل شقاء يؤذيهم مثلما تؤذيهم اهانة •
وحين جلس قوطي الامين الى نوله بعد لحظة قال بكلمات
سريعة قصيرة وهو يحرك يديه :

— نصيبك لا بد أن تناله • افهم جيدا ما أعنيه : انت قد
تكدح كالثور ، وقد تكون اذكى الناس وأمهرهم ولكنك لن
تأخذ الا نصيبك • كن غشاشا او سراقا او مكارا ، فلن تنال الا
نصيبك •

قال ذلك ومال على احدى ساقيه ثم مال على الاخرى ،
وصمت • ان يديه الشعراوين تمسك يسراهما بخيط الصوف ، وتمسك
يمناهما بالملكوك • لم يدرك انه ناقض نفسه بنفسه • على أن
ذلك أمر شائع في الكهف لا يهتم به أحد •

— فما هو السلوك الذي يجب أن نلتزمه في الحياة ؟ لقد قيل :
« من تقدم الى الله عاريا كساه » • ونحن أناس لا نرتدي الا
ثيابا مستعارة ، وكذلك جميع الناس ، يستوي في ذلك الظالم
والعادل • نحن جميعا عراة على أبشع صورة من العري • كلنا
عرضة للانظار بشكل مخيف • • والشباب الغريبة التي نطن أننا
متدثرون بها لا وجود لها الا في خيالنا •

خفض العمال الآخرون انوفهم ، وكان واضحا أنهم قد تأثروا بهذا الكلام • كان قوطي الامين يتحدث على مهل بصوت قوي • وكان حمدوش وحده ينظر اليه في وقاحة • فلما لاحظ الحائك العجوز ذلك ، امسك عن الكلام ، فاذا بالاحمر يخرج من فمه صوتا ماجنا •

— رجل بغير حياء •

قال الامين ذلك ولعنه ، ثم أضاف :

— حين ستوسد قبرك أيها الزنديق •••

فقاطعه حمدوش يقول وهو يغمز بعينه :

— لسوف نموت جميعا ، فلا حاجة حقا الى هذه الترهات

كلها • ولكن يخيل الي أن ذهنك مشوش بها كثيرا ••• أترأك غير مرتاح الضمير ؟ ••

فزاحت نظرة الامين ، وقال :

— سيقتنص لي الله منك أيها الشيطان •

ثم قال بلهجة غريبة ، هي لهجة من يأمر الآخرين وابتهل اليهم في الوقت نفسه ، أن يصدقوه :

— الناس عازفون عن الحياة الصادقة الخالصة التي ترضي

الله • ولكنك ان حضضتهم على أن يعيشوا على نحو آخر كنت تشوش نفوسهم • اني أوكد ذلك •

فصاح حمدوش يقول:

— بغاء ♦

فاغبر وجه الامين ، وأظلمت عيناه القاسيتان الكابيتان ♦ ولم
يجب على الاهانة ♦ وكان يهم ان يتابع حديثه ، فاذا بالاحمر
يصرخ ، وكان يراقبه :

— انه مجنون ♦♦♦ مجنون تماما ♦♦♦ عليكم بالمجنون ♦

فقال قوطي الامين عندئذ بصوت أبيض ♦

— عقابك عند الله ♦

وكان عثمان الملقب بالموت ، يذرع الممر المتوسط بخطى
مختلفة ، فاذا هو يدور في مكانه ، فيغير اتجاهه ، ويستأنف
بختريته ، ثم يصعد درجات السلم في بطاء ، حتى اذا صار عند
الباب ، نظر الى قاع المعمل ، ونادى يقول بصوت عريض :

— أنا الملك ♦

فالتفت جميع من بالمعمل اليه فرأوه ماداً ذراعه يشير باصبعه
الى الصبي الجديد ثم يقول :

— جزأوه أن يضرب بالعصا على أسفل قدميه مائة مرة دون

توقف ♦♦

فرشقه الصبي بنظرات حائرة ♦ ورفع صقالي وجهه الابيض
المبهم من فوق دولابه ، يصغي الى الحديث ♦

قال عثمان منذرا في عظمة :

— استعد ، فسوف تنال جزاءك ♦

حاول عمر ان ينظر الى مكان آخر حتى لا ينفجر مقهقهها ،
وقامت في المعمل عندئذ صيحات وشتائم وقهقهات ، واختلط
الحابل بالنابل ♦ ان جميع الحائكين قد تركوا عملهم ، فبعضهم
ممسك بأضلاعه ، وبعض يئن ♦

قال عثمان وهو يصطنع هيئة القسوة :

— ماذا ؟ أين الغرابة ؟ أأست ملكا على نفسي ؟

فما سمع العمال ذلك ، حتى هبت في المعمل عاصفة من الضحك
أعتى من الاولى ♦

وكان جلول حداد اول من استطاع أن يتكلم ، وهو يمسح
دموعه :

— لقد أحسنت الكلام أنت أحكمنا جميعا ♦

قال عثمان :

— سكوت الموت وصل

فصاح به أحدهم :

— ألا انك لطير شؤم ♦

فأجابه عثمان بقوله :

— لن تعيش مدة طويلة ♦

وفي هذه اللحظة دخل المعلم الى الكهف على حين فجأة •
فسرعان ما خيم الصمت •

سأل ماحي بو عنان :

— ماذا هناك ؟ هل اقتتلتم ؟ لكأن في معلمي وحوشا •
هبط عثمان درجات السلم في وقار ، دون ان ينبس بكلمة ،
فرشقه المعلم بنظرة ساخرة وهو يقول :
— آه •

فلما رأى عثمان الملقب بالموت أن المعلم يخصه بانتباهه
قال يسأل في رصانة :
— فماذا نعمل ؟

فأجابه ماحي بو عنان قائلا :
— نستدعي رجال الشرطة •

فدمدم صقالي يقول في ركنه المظلم :
— ياليت يارب •

واصطنع عثمان هيئة النادم التائب وعاد الى نوله •
وهذا احتياج الحائكين شيئا بعد شيء • وفيما كان المعمل
يستأنف العمل ، استرد الجو ما يشيع فيه من حزن وتسليم •
لا يألف المرء بمثل هذه السهولة ان يضحك •

ذهب عمر الى المقهى يلحق بعكاشة ، على عادته في كل يوم من ايام الاحد • كانت الساعة في نحو العاشرة من الصباح • ان رافا من السحاب تمتد فوق المدينة • واوراق الاشجار التي تنبجس من بينها البيوت العالية ، تلفها غلالة من أنسام شهباء شفافة ، تتجمل فيها المآذن وأشجار السرو • والشمس تظهر من حين الى حين ، فاذا بخار مضيء يحف بكل شيء من الاشياء على صورة هالة • انه نهار مرهف طيب •

الناس والعربات والبهائم تمضي في تيارات شتى • جلايب خشنة تحاذي قمصان بقالين • باعة ذوو لحى مصففة يسرون بخطوات صغيرة وهم يرجحون أذرعتهم • المقاهي طافحة الى الشارع •

وهذه هي المدينة الواطئة • ان جمهور الناس يجري هنا قاتما كالقطران • ودخل عمر المقهى ، فوجد عكاشة جالسا وحده في ركنه الاثير • قال له وهو يصل اليه مباغتةً :

— الله اعلم فيم تفكر •

فمر عكاشة بيديه على وجهه في بطاء •
واردف عمر يقول :

— منظر ك اليوم غريب كل الغرابة • أترأك قد وقع لك شيء ؟
فرنا اليه عكاشة • ان في عينيه من الضجر ما ارتبك له عمر •
وقال عكاشة معترفا :

— لقد استبد بي الامر في هذا اليوم دفعة واحدة •
وأسند رأسه الى يده :

— آن لي أن أذهب • لا أطيق بعد الآن بقاء •
فخطر ببال عمر ان امورا كثيرة ستسهل يوم يسافر عكاشة •
لقد اكتشف الصبي أن هذا الحائك لم يخلق للتحدي والمشاجرة •
وآلمه أن يرى هذه القوة مُدلةً مغلوبة على أمرها •

— أترانا بلغنا هذا المبلغ كله من غربة بعضنا عن بعض ؟

فلم يفهم عمر ما قاله عكاشة •

وردد عكاشة يسأل :

— ما رأيك ، هه ؟

— ما تقوله صحيح •

— هل أقول في بعض الاحيان ما ليس بصحيح ؟

وأظلمت عينا عكاشة • كان عمر دهشا • وأضاف عكاشة

يقول بصوت ران عليه الحزن :

— ليس الامر أمر تلفيقات •

ثم اردف يقول وقد أضاء وجهه في هذه اللحظة بابتسامة

طيبة :

— لا ، ما كان للناس ان يصيروا الى ما صاروا اليه لولا انهم

أوذوا أذى كبيرا •

ثم مال على عمر ، وهمس يقول :

— لقد أهين شعبنا كثيرا ••• وسيخرج من ذلك أمر رهيب هائل •

وخيم الصمت على دكان الشواء • وانقضت لحظة طويلة •
ثم عاد عكاشة الى فكرته كما يعود المريض الى الجرح الذي يؤلمه •
— لم أعد أطيع البقاء •

وتنهّد ، ثم التفت نصف التفاتة الى عمر ، وعاد يؤكد مرة أخرى :
— لم أعد أطيع البقاء •

ورجع الى النقطة التي تركها من سلسلة تفكيره ، فأكمل يقول :

— لقد أصبح شعبنا شديد الاحساس ، شديد الاحساس بالآلامه ، بالاهانات التي تحملها في الحاضر والماضي ••• أصبح شديد الاحساس الى حد يصعب ادراكه •

شعر الفتى مرة اخرى بثقل الجدران وكثافة الضوء المنخول ،
وركود الاشياء •

— وأصبح شعبنا أيضا شديد الاحساس بكرم النفس وكلمات المودة • لا شك أن هذا كله كان موجودا في الماضي • ولكن قلب شعبنا يخفق اليوم كما لم يخفق في أي يوم مضى • فما الذي سيخرج من ذلك ؟ أرجو ان يخرج منه خير •••••

قال الاحمر لعكاشة بلهجة كان يعتقد انها لا شك مفحمة :
— أراك تتحدث دائما عنا ، فهلا عرفت على الاقل ما قيمتنا ؟
هل تعلم ما الذي تقدر على فعله ، وما يمكن ان نقترفه من شرور ؟
قال ذلك وهو يلح على هذه الكلمات الاخيرة بنظرة مراوغة •
فأجابه عكاشة :

— نحن كسائر بني البشر ، قيمتنا كقيمة غيرنا من الناس سواء
بسواء •

ثم أضاف بعد لحظة من تفكير :

— لسنا شرا من غيرنا ، ولا خيرا من غيرنا ••• كل ما في الامر
أننا أشقى من غيرنا قليلا •

— كذبت • ان شيطاننا يختفي في نفس كل منا • يبدو علينا
أننا كسائر الناس ، لكننا لسنا كسائر الناس • ونحن جميعا
نرفض ان نسلم بذلك • اتنا نتكلم ونعيش ونعمل خافضي
الرؤوس ، ولكننا لا نتظر لا سnoch الفرصة المواتية لنقارف ما
نستطيع ان نقارفه من شر •

قال حمدوش ذلك وفي ارتعاش صوته حدة لا تبشر بخير ،
وأضاف :

— اننا لا نتورع عن شيء ...

— في رأيك اذن انه ليس في بلادنا الا أناس خطرون ، اناس
ينبغي أن يقيدوا بالسلاسل ♦

— أنا من هذا على يقين ♦

فضحك عكاشة ضحكة قصيرة ♦ وقال :

— سيتبدل الامر ♦

— أنت وحفنة من امثالك الحالمين وحدكم تؤمنون بذلك ♦ لا ،

لا ، ما من احد ينطلي عليه كلامكم منذ أخذتم ترددونه ♦

وكان حمدوش لا يستطيع ان يستقر في مكانه ولا ان يكبح

جماح عصبيته ♦ قال :

— هلا تفضلت فذكرت لي كيف سيتبدل الحال ؟

— ما من احد يستطيع ان يتنبأ كيف ستجري الامور على

وجه الدقة ♦

فصمت حمدوش لحظة ، ثم صاح يقول على حين فجأة :

— لا ، لست اوافق ♦

قال هذا ومر بلسانه على شفثيه بسرعة ، ثم حرك يده في

الهواء كأنما هو قد غص بكلمة ♦

— جميع الذين أراهم يبددون جهودهم ويرهقون أنفسهم في الكلام الطيب ، لا يزيدون على ان يبصقوا في الهواء • انهم يخدعون أنفسهم ويخدعوننا • ولكن كلامهم لن يحرك اصغر حصاة من حصى الطريق ، فان زعموا غير ذلك فهم كاذبون •
وطرف بعينه ساخرا •

— ما نحن في حاجة اليه ، يا أخي ، انما هو نوع آخر من الرجال •

ودلك صدره في بطاء وارتياح •

— أنظر اليهم في الشارع ، اخوتك هؤلاء • ما الذي تنتظره من هذا الجيش من الاشباح الساعبة ؟
نزع عكاشة الوتد الذي ييقي من تحت النسيج على تباعد الحاشيتين ، وانتصب وهو يقول :

— لا بد للمرء من كثير من قوة النفس حتى يقبل هذه الحياة على أنها خير ، وحتى ينسى هذه الآلام التي تجثم على صدورنا •
فاعترض حمدوش صائحا :

— أنت انسان يحيا على حلم •

وحين صاح بذلك كان كمن يريد أن يخرج محدثه من سبات عميق • فابتسم عكاشة • حتى اذا ادار اسطوانة النول مع مساعده حسين طرف وأعاد غرس الوتد في مكانه ، أشعل عود ثقاب وقرب

شعلته الصغيرة المتموجة من عقب السيجارة الذي كان قابضا عليه
بشفتيه ، وهو يحني رأسه الى جانب • أجاب :

— نحن في حاجة الى هذا الحلم •

— لسنا في حاجة اليه ابدا • وانما نحن في حاجة الى الحقيقة ،
الى الحقيقة عارية كل العري •

وقبض حمدوش يديه ، ورفع ذراعيه الى السماء وأخذ
يحركهما في الهواء ، ثم ضرب نوله وهو يقول معترضا بصوت
مختنق :

— هذا كله ليس له في رأيي أية قيمة •

وعندئذ أخذ شول يغني بصوت عال :

الليل جاء فأين تقضي الليل ؟

الليل جاء فأين تقضي الليل ؟



أصابه تبحت عن سيجارة فهي تنبش اللعبة مرتعشة محمومة
فتمزقها • ودمدم يقول :

— انتهى ، انتهى ، قررت ، قررت • سأذهب • سأمضي الى
بعيد ، الى بعيد ، حيث لا يعرف أحد من أنا •
فهتف عمر يقول :

— لماذا ؟ ماذا تأمل أن تجد ؟
— ماذا ••• ماذا آمل أن أجد ؟
وأخذ عكاشة يفكر :

— ألا تفهم ها •• ها •• قل : أتريد ان تجيء معي ، أم أنت
لا تريد ؟
— لا أريد •

لم يجب عكاشة بشيء • لم يدهشه هذا الرفض • كان يتوقعه
ولعله كان يتمناه •

ثم استأنف يقول بلهجة تشبه ان تكون لهجة دعاء :

— لم أعد اطيع البقاء • كفاني ما لقيت !

ان عياء لا سبيل الى وصفه كان يترقق في كلماته هذه •
• وصفق يديه وامر بقدحين آخرين من الشاي •

— لنشرب معا مرة أخرى •

• وابتسم • وابتسم عمر أيضا •

قال عكاشة :

— هناك شيء لا أفهمه ، هو ان مفارقتك ستؤلمني •

ونظر الى الصبي في انتباه •

— حقا •• ستؤلمني مفارقتك •

وجاء الساقى ، فوضع كأسين من الشاي الساخن ، ورفع
القدحين الخاليين • فما ان أدار ظهره ، حتى تابع عكاشة يقول :

— الحياة هنا رمل ، يملأ المرء يديه فلا يقبض على شيء •

ورشف رشفة من الشاي ، ثم رشف رشفة أخرى ، وهو
خافض رأسه ، لكنه يرقب عمر من فوق حافة القدح •

— ربما كان هذا السفر آخر حظ لي •

وأضاف بصوت أخفت :

— وقد لا يحقق لي هذا السفر السعادة ، غير انني سأشعر

اذا سافرت بأثني أقل تناقضا مع نفسي •

• وابتسم ابتسامة صامتة ، متقلصة بعض التقلص •

— نفس حزينة ، حزينة وقلقة ، قلقة قلقل رهيبا ♦

وعاد الصمت يخيم بين الرفيقين ♦

وابتسم عكاشة بعد لحظة ابتسامة وانية ، وقال :

— سوف أنتهي الى احتقار جميع من حولي اذا أنا لم ♦♦♦

وحرك ذراعه بإشارة في الهواء كأنما هو يطرد اشباحا أمامه ♦

* * *

كانت أمسية السيف تنشر جوا ورديا أشهب ♦ وقد اشتعلت
واجهات المخازن ♦ غير ان الليل ما يزال بعيدا ♦ ان الشوارع
تزدحم بكسل كبير ♦

ظل عمر يطوف على غير هدى ، فارغ الرأس ♦ انه ليس
بالحزين ، ولكنه ممزق القلب ♦ كان يسير في حذر ♦ لقد ودع
عكاشة منذ قليل ♦

ووصل من طوافه الى السور الذي يطل على السهل ♦ أخذ
يتأمل الحقول والطرق والاختايد ، أخذ يتأمل هذا المنظر الذي
يحيط به الظلام ♦ كانت الارض تغور في العتمة في رفق وهدوء ♦
تنسم تلك الرائحة اللانهائية القوية ، رائحة الريف ♦ ثم ما لبث
أن اصبح المنظر الذي أمامه عالما أجرد ساكنا : لقد هبط الليل ♦
ان طمأنينة آتية من الاعماق تملأ الآن قلب عمر ♦

وعاد الى الجمهور الذي تعج به الشوارع • انه يحس بحاجة الى ان يحيط به وان يحمله تيار هؤلاء الناس الذين لا يعرفهم كثيرا ، ولكن وجودهم ينعشه •

هذه مصابيح غاز وكهرباء قد علقها باعة الفاكهة كالالكاليل على طول الارصفة ، فهي تضيء سلالا تنساب فيها ألوان قوية مشبهة •

المدينة من الصيف في سكر • غير ان السطوع القوي والدفء المتألىء اللذين كانا في النهار ، قد اعقبتهما في الليل أنسام طرية •

وكانت نداءات باعة « الدندمة » أبرز كل ما في ذلك الغسق من حركة ونشاط • واخذت أولى النجوم تظهر في السماء • خيل الى عمر ان هذه الوجوه التي تلفها الظلال تعكس ما بنفسه من حماسة • ان هؤلاء الناس يشبهونه • انهم ، هم أيضا ، ينتظرون يقينا لا يتصوره خيالهم بعد ان قضوا أياما وأياما بغير أمل •



— يجب تبسيط الامور ، ينبغي لجميع الفروق بين البشر ان
تزل ، والذين يعارضون هذا يجب سحقهم • نعم ، لا فروق •

قال حمدوش ذلك بصوت يقرقع كالسوط • فدمدم عباس
صباغ • ان عباس صباغ لا يريد حتما أن يخوض في مناقشة مع
انسان مهتاج كحمدوش • ومع ذلك قال يدافع عن نفسه كأنه
هو المتهم :

— طيب ••• هذا رأيي أنا أيضا •

— كذبت • أنت تعبد كل قديم • ولست أول من أراه
كذلك • انكم جميعا سواء •

قال عباس :

— اذن لا تحاول أنت أيضا ، أن تجعل لنفسك ميزة •

— كل من يريد أن يجعل لنفسه ميزة يجب أن يباد •

تحرك عباس تحرك من ضاق ذرعا ، ولكنه لم يجب •

وكان الحائكون يعملون في همة ونشاط ، فلا هم يسلمون
ولا هم يعارضون • وكان بعضهم يتوقفون عن العمل في بعض
اللحظات ، فيسخرون بالمتبجح ثم يستأنفون عملهم •

قال عباس أخيرا :

— ان الله هو الذي أمرنا أن نعيش على هذا النحو ...

فحدجه حمدوش بنظرة غريبة • ثم قال له :

— هب الله هو الذي أمر بهذا • أفأنتم تفعلون كل ما أمر

به الله ؟

ومرة أخرى أصمَّ عباس صباغ أذنيه • وكان عمر يصغي الى
هذا الكلام كله مشدوها • كان يخيل اليه ان هذا الذي يتكلم
ليس حمدوش •

وأخيرا قال شول سائلا :

— وفيهم تلقي علينا هذا الهذر كله ؟

— من اجل ان تفهموا ؟

— من أجل ان نفهم ؟

وهزَّ شول كتفيه •

— كان البشر دائما يضطربون ويلتهم بعضهم بعضا •

قال ذلك ثم أضاف :

— فانما مرد الشر كله الى حماقتهم • افهم هذا أخيرا •

صمت حمدوش •

وحين آن وقت الخروج من الورشة ، سأله عمر :

— لماذا كنت حادا تلك الحدة كلها ؟

فمط حمدوش شفتيه ، ولم يجبه • ثم قال :

— ياله من سجن ! هيا بنا نخرج من هذا السجن •

وخرجا من الكهف ، وذهبا كلاهما الى مقهى من مقاهي
« بليق » ، رغم أن أحدا منهما لم يكن ينوي ذلك ، فلما جلسا
مديرين وجهيهما الى الشارع الصاخب الاغبر ، ظلا صامتين
لا يقولان شيئا • هما الآن في ساعة متأخرة من المساء • ظلال
السيوت تزداد طولاً على أرض الشارع • ان شيئا مرهقا يجثم
على صدر هذه الامسية من اماسي آب • وكان حمدوش يتفرس
في كل ما يجري ، بشراة ، وقد صالبا ذراعيه على صدره •

قال بلهجة غير مألوفة فيه :

— ان المرء ليخجل من نفسه في بعض الاحيان •

فالتفت اليه عمر على مهل • فتابع حمدوش يقول :

— الصبر شيء لا أستطيع أن أفهمه • انني آخذ في الارتعاش

والصراخ لاتفه سبب من الاسباب •

كان حمدوش يتكلم محمق العينين ، ثم اذا به يضحك فجأة •

— هل تريد أن أفضي اليك بأمر ؟ انني أشعر أحيانا كأنني

وحيد في هذا العالم ، وكأنه لا وجود لاحد من الاحياء غيري ،

فأصبح عندئذ انسانا لا يطاق ، انني أضيق ذرعا بنفسي • لعل

هذا يرجع الى مرض بي •

قال ذلك ونظر الى رفيقه من جانب ♦

ثم تابع يقول بلهجة هي بين المرح والجد ، لا تدري الآن
هيئة عمر قد طمأنته أم لان مزاجه في ذلك المساء كان يدفعه الى
أن يفضي بذات نفسه أكثر مما عهد فيه :

— على كل حال ، هناك شيء ليس على ما يرام ، لا ادري
أين ♦ لماذا أنت صامت ؟

— افكر فيما تقول ♦

وكان عمر يفكر حقاً في اقوال الاحمر ، فانصبت عليه نظرات
حمدوش قلقة قلقاً مبهما ♦ قال له عمر :

— اني لا اصدقك ♦

— لا تصدقني ؟ أنت على صواب ♦

الحق أن عمر لا يستطيع ان يقول ما الذي كان يشعر به أثناء
اصغائه الى حمدوش وهو يفضي اليه بذات نفسه ♦ لقد كان
يحس بضباب كثيف يجلل ذهنه ♦

ان طيوف المارة في الشارع تسود وتستحيل شيئاً بعد شيء
الى ظلال تتحرك ♦ فقد هبط الليل ♦

فلما أفرغ عمر وحمدوش كأسيهما ، نهضا ، ومضا يمشيان
في المدينة ♦

كان الاحمر قد طلب الى عمر ان يوصله الى بابه ، فوافق
عمر على ذلك ♦

— طيب يا حمدوش ♦♦ هبك قتلت واحدا ، بل هبك قتلت عددا ♦♦ فما تصنع بعد ؟

— ما ينبغي أن تفكر الآن فيما سيحدث بعد ♦ كيف لا تفهم هذا ؟ ذلك أمر تفكر فيه بعد ♦ أما الآن فيجب أن نعمل ♦

وانتفخت شفتا الأحمر واتسع منخراه ♦ ثم انفجر صوته على حين فجأة حارا خافتا يقول :

— يجب أن نكون رهيبيين ، لا بمظهرنا فحسب ، بل بطبعنا أيضا ♦ يجب أن نكون رهيبيين ويستوي بعد ذلك أن نغلب أو أن نغلب ♦

قال ذلك وقد شحب وجهه ، ولكنه أردف يقول وقد هدأ قليلا :

— يجب أن تنهي هذا الطراز من الحياة التي عشناها الى الآن ♦ كان عمر لا يستطيع أن يحول نظره عن رفيقه ، ولا أن يقف الانفعال الذي استبد به ♦ وتناول عمر يد الحائك ، فهزها وهو يقول له :

— أنت أيضا انسان يعيش على حلم ♦

ولكن حمدوش كان قد بلغ من الاضطراب انه لم يسمع كلماته ♦ وما لبث عمر أن تركه ♦

وفيما هو يسير في الظلام ، كان يترامى اليه صوت الاحمر صلفا وساخرا سخرا غريبا في آن واحد :

— يجب أن نفعل شيئاً ، ليس يجدينا الا أن نفعل شيئاً •

كانت الشوارع تخلو شيئاً بعد شيء ، وكان قلب عمر ، كهذه
لشوارع ، يتسع للخوف والقلق أكثر فأكثر • وقال لنفسه فجأة :
ان حريته ملك له ، وان عليه أن يتصرف فيها على النحو الذي
تمليه عليه ارادته •



بعد أن سافر عكاشة ، اختفى حمزة أيضا اختفاء لم يعرف سره أحد . وقد انقطع حمدوش عن المجيء الى الورشة منذ يومين ، فقرر عمر ، في صباح هذا الاحد ، أن يذهب الى بيته ليراه . ان قلقا لا يفهم قد قام في نفس عمر . ان عمر لا يعرف لم استبد به هذا القلق . انه لا يستطيع ان يقول لماذا سبب اه حمدوش هذا الهم المبالغ .

لم يكن وضع الاحمر وضعاً بسيطاً ، ولا كانت أقواله كذلك . انه يجذب وينفر ويشير ويجرح . غير أنه كان ، بحكم السن ، أقرب هؤلاء الحائكين الى قلب عمر . وبعد ان سافر عكاشة ، ازداد عمر اقتراباً منه حتى لقد أصبح له عليه نوع من التأثير يشبه السحر . ان قوة جاذبية لا تعليل لها كانت تحمل عمر على السعي الى صحبته . لا شك أن في حمدوش شيئاً متوحشاً لم يروض ولم يستأنس .

الصيف يسطع على المدينة ، والهواء أنسام خفيفة ، والسماء السكرى تسكب دفناً باهراً . ذهب عمر الى تلك الاحياء الدنيا التي يُضغظ فيها المرء بغير انقطاع ويُصدَم وتحمله أمواج المارة . ان في كل ركن من الاركان متسولين يثنون ، فهم تارة

فرادى وتارة جماعات ، وتارة ضائعون في زحمة الناس ، ولكنك تعرفهم دائما من مشيتهم المتلمسة • من ذا الذي كان يسمع ضراعاتهم ؟ ان صوته يغور في الجلبة فما يصل الى الاسماع • غير أنهم يصرون على الصراخ في غير يأس •

وفيما كان عمر عند تقاطع شارعين لمح شرطيا وامرأة يحيط بهما عدد من الاشخاص •

كان الشرطي يقول للمرأة ، بصوت يحاول أن يجعله مقنعا :

— خير لك أن تعودى الى بيتك • عودى الى بيتك •

وكانت المرأة ترتعش ، ويزداد كلامها حدة شيئا بعد شيء •

— انهم جميعا سواء حين يكون الامر امر اقتياد رجالنا الى

السجن • لقد اعتقل زوجى هو وواحد آخر ••• والآن يطلب الى

أن أعود الى بيتى •

صرخ الشرطي يقول :

— عودى الى بيتك • وأنتم ، هيا افسحوا الطريق •

فهدأت المرأة روعها ولكنها صمدت ولم تذهب • وظلت تتكلم ،

سافرة عن وجهها أمام جميع الرجال ، وهي تتحدث الى الجمهور

الذي كان يتجمع من تلقاء نفسه استجابة لنداء الشقاء •

وأزاحت المرأة حايكها ، وأخرجت يدها تشير بها الى الشرطي

وتقول :

— هذا الرجل يزعم أنه واحد منا ، يزعم أنه أخ من اخوتنا ،
فيا أيها الناس الطيبون هل يستطيع أحد ممن يلبسون هذا اللباس
العسكري أن يظل يزعم لنفسه أنه واحد منا ، انه أخ من اخوتنا ؟
فتتقدم الشرطي وعاد يقول بصوت رجل من رجال السلطة :

— ابتعدوا •• انكم تسدون الطريق العام •

فتفرق الناس ، وأخلوا المكان ، فما ان عاد الشرطي الى وراء
حتى أطبق السد البشري مرة اخرى •

فلما رأى الشرطي ذلك رجع اليهم وقد جحظت عيناه ، وأخذ
يحرك يديه قائلاً :

— انقضت ساعة وأنا احاول ان اردكم الى الصواب • أما من
سبيل الى ردعكم ؟

فلم يتحرك أحد من مكانه • وكان الحشد يضم من النساء
المحجبات والاطفال مثلما يضم من الرجال • ان واحدا من هؤلاء
الرجال ، وهو قروي فيما تدل عليه هيئته ، كان مستندا الى عصا ،
يراقب في هدوء ، وهو على هذا الوضع ، ذهب الشرطي واياه ،
فتتقدم منه الشرطي وقال :

— ماذا تعمل هنا ؟

فنظر الرجل الى الآخرين وقد ظهرت في وجهه علائم الدهشة ،
ولكنه لم يتحرك من مكانه • فعاد الشرطي يسأله :

— ماذا تعمل هنا ؟ لعلك تشتهي أن ارمي بك في السجن ؟

— ارم بي في السجن ان شئت ♦ أنا أنظر ♦

فصمت الشرطي ♦

كان القروي ، ذو الوجه المعبر والهيئة الحازمة ، قد وقف مباعدا قدميه ، وما تزال يدها وراء ظهره ♦

سأله الشرطي :

— تريد أن ارمي بك في السجن ؟ ماذا جرى لعقلك ؟

وكانت المرأة تتكلم عن شقائها الى المحتشدين بلهجة الحديث العادي المؤلف ♦

فعاد الشرطي يسأل :

— ما لكم تسمرتم هنا ؟ لماذا لا تنصرفون ؟

قال الرجل الذي كان يبدو عليه أنه قروي :

— نحن جميعا اخوة ♦

فقال الشرطي يوافقه :

— صحيح ♦

فهتف صوت بعيد يقول :

— هه ! انه يتذكر أصله !

فقال الشرطي متدمرا :

— يوشك من يسمع كلامك أن يظن أننا أبالسة ♦

فأجابه الرجل :

— أنت شرطي ♦

فقال الشرطي :

— طبعا أنا شرطي ♦

وأضاف وهو يتجه بكلامه الى الجمهور :

— لا بد لي من القيام بواجبي ♦

فتدخل أحدهم يقول :

— دعني أذكر لك هذا الامر ذكرَ أخ لآخ : ان أخا طيبا مثلك

هو الذي شق رأسي ذات يوم ♦ لماذا ؟ لان الوقت المحدد للبيعة المتجولين كان قد انقضى ولم أنصرف بعد مع خضري ♦

— ماذا بك حتى تقول هذا الكلام ؟ انني لآحسن صنعا اذا

هويت عليك بيدي ♦ هيا اذهبوا ♦ يجب أن لا يعرقل المرور ♦

وكان الجميع قد ازداد كثافة ♦ والناس ما يزالون في امكنتهم

ينظرون الى المرأة وينصتون لحديثها ♦

قال الشرطي :

— وبعد ؟ ما بكم جميعا ، هه ؟

فاذا بصمت كصمت الموت يخيم ، بعد هذه الكلمات ، على

الحشد المظلم الذي لا صدع فيه • وعندئذ سأل الشرطي بصوت خافت :

— ماذا تريدون ؟ هذا مورد رزقي ، ان لي ثمانية أطفال ••
فهل تلومونني ؟

فقال القروي بعد بضع لحظات :

— دعوه • اذهبوا في سلام •

فابتعد بعضهم يخلون السبيل للآخرين • وظهرت في وجه الشرطي ابتسامة شكر •



بعد الشوارع المزدحمة والجمهور الصاخب ، يظهر الصمت هنا على حين فجأة • ياللهدوء المبالغت في هذه الازقة الضيقة المتعرجة ! الشمس تلهو على البيوت الشائبة الهرمة التي يرتفع بعضها فوق بعض ، والهواء الشكس يلهو تحت كشش العشب التي تزين بريشها ظاهر الجدران • وليس للجدران من منفذ يطل على الخارج غير المداخل العميقة التي يدلف اليها الداخل على درجة او درجتين في أكثر الاحيان • والابواب ذات المقارع ثقيلة ، فلولا انها تظل فاعرة في الليل والنهار على السواء لما أمكن الوصول الى داخل البيت •

وأن حياة السكان (الاحاديث ، وأصوات النساء ، وأيدي الهاون التي تدوي كالاجراس) انما تطل على عالم آخر • تلبث عمر عند بناية قديمة ضخمة ، فاجتاز مدخلها الكبير ، ثم دفع بابا صغيرا معلقا في زاوية على مسافة ثلاث درجات من الارض ، وأخذ يصعد السلم الحلزوني الضيق ، المظلم جدا ، الذي أفضى به الى مسكن صديقه • فلما صار عند العتبة ، صاح يسأل ؟

— هل هنا أحد ؟

فجاء الجواب :

— هه • هذا أنت ؟ ادخل يا سيدي ادخل !

كان الصوت هو صوت حمدوش المازح • فما ان وضع الفتى قدمه في الغرفة حتى بهرته الشمس التي كانت تدخل اليها من نافذتين • كان حمدوش مستلقيا على فراش مسطح كالرغيف ، وهو مرتد ثيابه غير انه عاري القدمين ، فلما رأى صديقه نهض وفي عينيه ابتسامة ، وأخذ يدس قدميه في نعليه •

الغرفة العارية كل العري مبيضة الجدران • وفوق فراش القش يتدلى معطف مهترىء لا لون له ، معلق بمسمار • وفي ركن من الغرفة ينام صندوق خشبي على جنبه • كاشفا عن سخان صغير يشتعل بالكحول ، وابريق متبعج لغلي الشاي ، وزجاجة ، وفنجان وصحن • • وعلى الكرسي ترقد باقة طرية من نبات النعناع في قدح ماء • وليس في الغرفة شيء آخر •

كان قد نهض حمدوش • قال :

— جيد هذا المسكن •

ثم أخذ يتمطى ، وأضاف بصوت فيه تشاؤب :

— هو جيد في الصيف خاصة • أما في الشتاء • • • • • بررر • • • • •

وطفق يهيمىء الشاي • كان عمر ، الذي لم يفتح فمه بكلمة ، قد اقترب من احدى النافذتين ، واخذ ينظر الى الخارج : ان المرء

لا يرى الا السطوح المجاورة ، فليس البيت عاليا • أما السماء ،
فما كان اروع صفاءها في ذلك الصباح !

غاب حمدوش وعاد بعد دقائق يحمل بيده خبزا فرنسيا وضعه
على الكرسي ، ثم مضى يرمي ماء الكأس من النافذة ، وكان ابريق
الشاي قد أخذ يغلي ، فصب في الكأس شيئا من السائل الاحمر
وذاقه ، ثم أعاده الى الابريق ، وأخذ يحرك الابريق تحريكا قويا
وهو يشتم ويسب :

— كفى سفالة • كفى رذالة •••

وعاد يصب الشاي في الكأس حتى ملأها ، فقدم الكأس الى
عمر ، أما لنفسه فقد ملأ الفنجان الذي كان في الصندوق •

— هل الشاي طيب ؟

وكانت شفتا عمر على الكأس ، فهز رأسه يؤكد انه طيب ،
فسر حمدوش بذلك ، وابتسم ابتسامة مشرقة •

— لو قلت غير ذلك لسكنت الابريق كله على رأسك •

قال ذلك وقدم للصبي قطعة من الخبز ، فرفض الصبي أن
يأخذها رغم الحاح الاحمر •

— أأنت جائعا ؟

— لا •

واستمر يشربان الشاي • ان حمدوش يأكل مع الشاي

خبزا • والاثنان صامتان لا يقولان شيئا ، ولكن كلا منهما يرقب
ما عسى أن يقول صاحبه •

رشف حمدوش رشفة صاخبة من الشاي وراء لقمة الخبز
التي دسها في فمه بشراهة جائع ، ثم دمدم يقول :

— انك لست بالفتى التافه ، ولكن خيالك جامع في بعض
الاحيان •

— كيف ؟

— لا أستطيع أن أشرح لك ذلك ، ولكنني أعرفه • انك تسلك
سلوك من يحس ان الناس ضائعون وأنه لم يخلق على هذه الارض
الا ليشاركهم آلامهم •

قال حمدوش ذلك ونظر الى جانب كأنه يفكر في شيء ما •
ثم أضاف :

— كذلك كان عكاشة •••

— هل سمعته يقول شيئا عني ؟

فأجاب حمدوش بغير تردد :

— كان يعتقد أنك انسان عانى من العذاب اكثر مما عانى غيره •
وأنك ما تزال تتألم أكثر من غيرك لأنك أرهف احساسا من غيرك •

ثم قال وقد علت نبرته فجأة :

— وعكاشة أيضا كان يتألم للآخرين اكثر مما يسألونه أن
يتألم لهم • كان يجب أن يواسي ، والمواسون خادعون •

واعترف يقول بصراحته الخشنة :

— وطبعاً لم يمكن تصديقه ♦

وعاد يمزغ الخبز ويشرب الشاي ♦

— لم يكن يعاشر النساء ♦ كان طاهراً ♦ وكان يحب النظام ♦

كان طيباً ♦♦♦ هذا اسراف ♦

ومن العجيب ان حمدوش كان يتحاشى أثناء كلامه ان ينظر الى عمر ، غير أنه ظل مع ذلك يراقبه بطرف عينه ♦ استغرب عمر أنه ظل طوال المدة الماضية لا يلاحظ ان للاحمر طبيعة ثانية يخفيها ، وأحس ان حديثه اليه على انفراد يكشف له الآن عن هذه الطبيعة ♦ ونسي مع ذلك ان يسأله عن سبب غيابه خلال الايام الاخيرة ♦

ولكن حمدوش تابع يقول :

— ليس الامر أمر شفقة على الناس ♦ ان الناس لا يسألونك

أن ترثي لحالهم وان تشفق عليهم ♦ أنت تريد لهم الخير ، ولكنهم الى العدالة انما هم ظالمون ♦

صعق عمر ♦ وقرب حمدوش وجهه من الفتى ، وقال مؤكداً

في اقتناع :

— ميل سيء ♦ ثم تصور النتيجة التي يجنونها من هذا ♦ ان

هذا لا يرفع عنهم ذرة من البؤس الذي هم فيه ♦ والا لكان الامر سهلاً مفرطاً في السهولة ♦

— أنت تكره الناس •

— بل أريد لهم ان يتعلموا كيف لا ينشدون الا سعادة واحدة : الحرية •

— هناك السعادة بالحياة ••• بالحياة ••• بمجرد الحياة •
— كلام •

— ولكن جميع الناس يرغبون في هذه السعادة •

— كل هذا لا روح فيه • وانما ينبغي للانسان ان يتعلم
الشعور بالحرية من جديد • أما الظمأ الى الحياة فانه يعود
فينشأ بعد ذلك •

— ما عليك الا أن تفتح عينيك وترى •••
فانفجر حمدوش ضاحكا •

ثم قال وهو يضرب الجدار بقبضة يده :

— العالم قاس • وجميع الذين يتطلعون الى أفكار رفيعة
كريمة سيتحطمون على صخرته • وما ينبغي أن نعجب اذا نحن
رأينا الارهاق يدب فينا من قبل ان نبدأ النضال •

نفذت أقوال الاحمر في قلب عمر نفاذ السكين •
وأضاف الاحمر يقول :

— ولا تنس بعد ذلك أن اخوتنا اوتوا القدرة على اعتياد
كل شيء ، وان مبائسهم نفسها اصبحت لا تؤثر في نفوسهم •
— لا ادري ••• ولكنني أرى ان الاصح من ذلك ان يقال

انهم خجلون منها ، فهم لا يتحدثون عنها • انهم يخفون آلامهم •

— لا ••• هذا غير صحيح • ان قلوبهم ميتة •

— يجب ايقاظ قلوبهم من سباتها •

— ما يجب انما هو : الكره ، القسوة •

— هناك أناس يساعدون غيرهم على أن يصبحوا خيرا

مما كانوا •

— لعلك ستصير من هؤلاء •

— ربما صرت منهم • لم لا ؟

ومرة أخرى أخذ حمدوش يضحك ، فجمد عمر •

— اذا أردت أن تجر الناس ، كان عليك ان لا تدع لقلبك ان

يرق لاناتهم • انك اذا اتفق أن اوليتهم صداقتك ، لم يخشوك •

— أنت تشبط العزيمة •

— الامر كذلك ، فلا أنا ولا أنت لنا فيه حيلة • منذ وجدت

في هذا العالم اسمع اناسا يدعون الى الرحمة وحب البشر ••••

وما زلت الى الآن اسمعهم ، هؤلاء الواعظين ••• ولكنني لا أرى

ان البشر قد تحسنت احوالهم •

كان عمر يصغي صامتا • لقد بدأ منذ الآن ييأس من حمدوش •

ولما خرج من عنده ، احس بقلبه يفيض ضعفا • وقد سأله ،

وهو يودعه ، عن سبب انقطاعه عن العمل ، فأجابه الاحمر بقوله :

— لم أشأ ان أذهب •

ما ان اخذ المعمل يتحرك في ذلك الصباح حتى استأنف حمدوش انتقاداته المرة • قال :

— لا يصدق المرء مدى ما تتصفون به من جبن ، حتى ليتساءل أهو أمام أفراد يرغبون حقا في شيء أم هو أمام أفراد لا يعنيههم حتى مصيرهم •

وأخذ يكيل الهجاء لرفاقه ، ويضطرب ، ويشتم • كانت الالفاظ تتشبث بحلقه وأسنانه ولسانه ، ولا تريد ان تتركها • قال شول مازحا :

— أكرِّنا أولا ما أنت قادر على أن تفعله ، ثم نظر في الامر • قال عمر لنفسه : « اذا أراد المرء ان يجتذب الى صفه الآخرين ، كان عليه أن لا يغرقهم بوابل من اللوم والتقريع • انهم يفهمون أن حياتهم حياة سيئة ، فما هم بالعميان ، وانهم ليلومون أنفسهم بما فيه الكفاية ، وانما ينبغي أن يبرهن لهم على صداقته وأن يقدم لهم شرحا مقبولا » •

وتذكر سراج ، وتذكر عمالا آخرين غير سراج • انه يدرك الآن ان لغتهم يمكن ان تبدو لغة اجنبية في نظر حمدوش •

اما الاحمر فهو يفهم زملاءه ، ذلك كل ما كان يستطيعه ،
ذلك كل ما كان يجيده • لم يحاول مرة واحدة ان يشد ازهرهم
وان ينعشهم بكلمات سمحة كريمة • فكلما حاول اقناعهم
ازدادوا برما بأقواله • وكان يمكن ان يصلوا من ذلك الى اعتباره
ألد أعدائهم لولا أنهم كانوا يرون فيه « قرقوزا » هوب القدرة
على الكلام •

ولم تزد الحال الا سوءا يوما بعد يوم • أصبح حمدوش
يسترسل في أحاديث قاتمة مفككة ، ويتكلم بألفاظ موجزة •
انه ما يني يحل أضرار سترته ثم يعقدها ، ويهتز ويضطرب كمن
يريد ان يتخلص من حمل ثقيل • وان في نظره أثناء ذلك من
الالهم والزيف ما يولد في نفس عمر افجع التنبؤات •

قال ذات مرة وفي صوته سخر :

— معذرة • • • ليست المسألة ان نشفق على الشعب أو لا نشفق
عليه • اني لا نظر الى الناس فأرى على وجه عام أنه ليس هناك
شعب • ليس هناك شعب حقيقي • ليس هناك شعب حقيقي •
ليس هناك شعب حين يجمع بعضهم كتلة من الناس ثم يصيح بها
قائلا : « أنتم الشعب ، الشعب الذي يصنع كل شيء ، ويعلم كل
شيء » • هذا الشعب الذي يجتمع عندئذ ليس الا هراء •

ثم تابع يقول حائقا رهيبا :

— الذل ، العبودية ، الخوف ، كل ذلك قد أفسدنا حتى
النخاع • فأصبحنا لا نشبه البشر •

فقال له شول آمرا :

— اخرس

فأجابه الاحمر بقوله :

— أنت لا تريد أن تسمع كلامي لانه يغيظك •

فما كان من شول الا أن قذفه بطلقات من هاجر القول •

فقال الاحمر عندئذ :

— هذا أنتم • انني أعرف ما يحس به من كان على شاكلتك

من الناس •

واحمر وعرق • وكان الحائكون يصيخون اليه الآن اسماعهم

بغير ضحك •

— انكم لا تنتظرون الا لحظة انقضاض ، غير أنكم لا تنقضون

الا حين لا يكون هناك أحد يحول بينكم وبين ذلك • حتى اذا

لم يكن هناك أحد أخذتم تزأرون حتى الموت • انكم تنكوون

ثم تنكوون بأحقادكم ومذلاتكم يا أيها المهانون • غير أنكم

لا تفعلون في أثناء ذلك شيئا يحميكم من اولئك الذين يهينونكم •

انكم تقبعون كالبق منتظرين ان يحميكم غيركم • حتى اذا جاء

يوم اقتسام الغنيمة خرجتم من اجحاركم خروج الحيوانات تجتذبها

رائحة جثة • انكم متى استطعتم أن تنتقموا في أمان ، أصبحتم

كالوحوش الكواسر • ألا انني لا اريد ان ارى افواهكم في

ذلك اليوم •

— حاذر أن تتجاوز الحدود ، فينتقموا منك في ذات يوم •

قال حمدوش :

— من هم ؟

وأخذ يكيل الشتائم لزملائه الحائكين • ثم قال بصوت محتقن
بالاحتقار :

— أوضاع • ان هذا الكهف شر من مجاري الاقدار ، انه
العفن بعينه •

ثم ضرب بطرف سبابته السيجارة المحترق نصفها ، التي كان
قد قدمها اليه عمر ، فطارت الى بعيد •

— آه ••• ما أشد تفسخ المرء في هذا المكان ! •• انني في
بعض الاحيان لا ادري ما الذي يمكن أن أفعله ••• يخيل لي
في بعض الاحيان انني لا أتورع عن أن أرمي كل شيء في الهواء •
كانت أمسية رائقة ، تهب عليها نسيمات دافئة •• أمسية يقظة
خفية مثقلة بجو من الوقوف في ختام مرحلة من السير • الناس
يعودون الى بيوتهم • انهم يقطعون الشوارع وهم يحملون تحت
الابطين خبزا أو مؤونة • ان في أخشن الوجوه تعبيراً حاداً
يرهفها •

وكان الشبابان قد صمتا لا يقولان شيئاً •

دمدم حمدوش يقول :

— آه ••• ليت جميع هؤلاء الذين يمرون هناك كالسائرين
في نومهم ، ليتهم يريدون ان يستيقظوا •••

وصافح عمر صديقه ، وغار في الشوارع الضيقة المضاءة
نصف اضاءة •

ونام في تلك الليلة ، غير ان فكره لم ينم • كان فكره يكب
شلة من تلك الشلل المتشرجة المليئة بالعقد التي لا يرى المرء مثلها
الا في كابوس • وما لبث ان سمع صوتين يتحادثان فيه ، هما
صوته وصوت شخص آخر ، صوته وصوت ظل كبير يحمل انفاس
المجهول • ومن عجب ان في هذا الصوت نبرات تذكر بنبرات
الاحمر • وأخذ الصوت يلهث • ان عمر لا يستطيع أن يفهم هذه
الكلمات التي يقذفها ذلك الصوت في الفضاء • وعندئذ تفجرت
في رأسه الحقيقة • « ان حمدوش يريد ان يُعد العدة للقيام
باغتيالات ، ويقتضيني بل يأمرني أن أشارك في ذلك » • وانقطع
الخيط فجأة • وأصبح عمر لا يسمع الظل • ولا مست جبينه ريح
بيضاء من ريح السحر •



سارا في ممر يصطف على جانبه صفان من اشجار الجوز الهرمة ومن أشجار الدلب ، على حافة البركة الكبيرة • ان الاشجار التي أخذت تورق تشكل فوق رأسيهما قبة من خضرة كثيفة مهتزة • فلما صارا في منتصف الطريق جلسا على مقعد ••• وكان المساء يوشك أن يهبط •

كانت عينا حمدوش تسطعان بريق ما ينفك يزداد ، فربما كان مرد ذلك الى الساعة التي هما فيها من النهار • وأدرك عمر من ارتجاف شفثيه أن به رغبة جامحة في معالجة الموضوع الذي كان يشغل باله ، الا ان هناك حائلا يقف الكلمات على شفثيه • قال فجأة وهو يسحق بقدمه عقب سيجارة كان على الارض •

— مم تخاف حين أكلمك ؟ هه ؟ مم تخاف ؟ أنت تسيء الظن بي وتحترس مني •

فقال عمر ، وقد ادرك اخفى ما يجول في خاطر رفيقه من افكار :

— ما من أحد يخطر بباله ان يهدم اي شيء قبل ان يوقن من انه سيحل محله شيئا آخر أفضل •

فنظر حمدوش الى الارض بين قدميه عابس الوجه • ثم رفع رأسه كمن عثر على فكرة فاتته حتى ذلك الحين ، وقال :

— ولكن ليس من الشرف في شيء أن تقول عن أمر من الامور : « اننا لا نريده » ثم نحن لا نفعل شيئاً من اجل القضاء عليه • ليس من الشرف في شيء ان تتشكى ، ثم نحن لا •••

ومرت في تلك اللحظة سيدة ترتدي ثوبا خفيفا من ثياب الصيف ، ووراءها طفل يتعثر في مشيته ، وهي تتابع خطواته بنظرة تفيض افتتانا •

فلما صارت أمامهما القت نظرة سريعة على عمر وحمدوش ، فاذا بوجهها ينقبض انقباضا غريزيا ، ثم حولت عينيها عنهما ، غير أن عمر أحس بما فيهما من اتقاد قاس •

سأل حمدوش صاحبه بصوت خافت :

— رأيت كيف نظرت إلينا ؟

— رأيت ، فماذا ؟

— أنا يستحيل علي ان اطيق هذا • لن ارضى في يوم من الايام ان ينظر اليّ احد هذه النظرة •
قال ذلك وقد علت نبرة كلامه •

— اني هنا في بلدي ، ولاجعلنهم يدفعون ثمن هذه النظرة •
وصمت الاحمر وقد اربد وجهه •

ان ذلك كله يزعج عمر • انه لا يشتهي الآن ان يدخل في أي حديث • كان يقرأ أمامه ، على الطرف الثاني من البركة ، كلمات

كتبت بأحرف كبيرة خرقاء : « السوفيت في كل مكان » • ان هذه الكلمات المكتوبة يرجع عهدها الى عدة سنين خلت ، وقد سبق لعمر ان رآها هنالك • وما تزال الى الآن • ان القطران الذي كتبت به قد ابيض • وظل عمر يقرأ هذه الكلمات ثم يقرأها ويقلبها في رأسه ويفكر فيها ويحلم •

سأله الاحمر وهو يضرب الارض بقدمه :

— ولكن ••• أنت ••• ما رأيك أنت ؟

فصحبا عمر من تأملاته ، وفهم ان معنى سؤال كهذا السؤال هو التالي : « أنت ••• ماذا تنوي أن تفعل ؟ » •

فتفرس في الاحمر مستطلعا ، فألمه أن يراه على هذه الحال •
— رأيي انك تضايقني ، وأنتك لن تقوم بأي عمل نافع ما ظلمت تريد ان تمضي الى العراق وحدك ، وأنتك أيضا لن تجني شيئا من محاولة جريّ اليك بالقوة ، فأنت بذلك تضع وقتك سدى • اذهب وافعل ما يروق لك ، ولكن اتركني وشأني • ورأيي من جهة اخرى انني لست أنا محلّ اهتمامك في هذه القضية ، فأنا أعلم أنك لا تؤمن أنت نفسك بما تقول ، وأنتك انما تستدرجني الى الكلام من أجل ان تصل الى شيء من الايمان •
— مماحك •

— قل ما تشاء • لقد سألتني رأيي فبسطته لك • فلا تضجرني بعد الآن بأسئلتك • ودعك ، خاصةً ، من محاولة جري اليك ، فذلك جهد ضائع ، وهأنذا قد أنذرتك •

كان حمدوش يبتسم ابتسامة خفيفة لا ترى ، وقد تاه نظره •
فاضطرب عمر • ان قلقلنا خاطفا قد قام في رأسه ، فدفعه عمر عنه •
ما عسى يستطيع الاحمر ان يصنع به ؟

غير أن حيرة مبهمة تغزو نفس عمر ، ثم لا تبارحه رغم ما يقوم
به من جهد لطرد تلك الافكار من ذهنه •

غمغم حمدوش يقول بهيئة الطفل العنيد :

— اسمح لنفسي بأن أعتقد أنك ستغير رأيك في ذات يوم •
وستتذكرني عند ذلك • وربما يكون الاوان في تلك اللحظة
قد فات •

— دعك من هذا الحزن كله ، اضحك قليلا • الايام آتية •
فقال الاحمر في خشونة :

— يعجبني أن أكون كما أنا •

ونفض •

فنهض في اثره عمر ، وتابع طريقهما بحيث يدوران حول
الاسوار ليدخلا المدينة •

فلما صارا في الطريق الكبرى غشّاهما التراب الابيض الذي
كانت تغوص فيه السيارات وهي تجري مسرعة • هذه ضاحية
ثرية حافلة •

دخل الصديقان المدينة ، فاستقبلتهما الحرارة الخائقة التي
تنشرها الجدران الحامية • وهبط الليل •

حل تشرين الاول • ثم حل تشرين الثاني • لم ينقض الصيف ،
وما يزال قيظه مشتتلا • استمرت الحياة في الكهف على حالها لم
تتغير • المعمل يغوص في الضجر والسأم رغم وفرة العمل ، ورغم
الجلبة الابدية التي لا تنقطع • كان حمدوش ما يزال يتغيب كثيرا ،
وكان ذلك يثير في شول تعليقاته الغضبي •

في يوم الاثنين ذاك ، كان جميع العمال يتحركون صامتين ،
غير أن بهم تلك الشراسة وذلك الاعياء المألوفين في كل صباح من
أصباح أيام الاثنين • ومرة أخرى لم يكن حمدوش قد أتى •

قال ماحي بوغنان شاتما ، حين مر بالمعمل في منتصف النهار :
— ما الذي جرى له أيضا ؟

فأجابه شول ساخرا :

— كان في قصف ومجون •

لم يصدق عمر هذا • وأمره المعلم في حدة ان يمضي اليه
مستظلماً أنباءه •

فلما دخل عمر الى مسكن حمدوش ، استقبله صاحبه في
حماسة ، فكان رؤية الفتى تخفف عنه • وقد لاحظ الفتى منذ

النظرة الاولى ما كان فيه صاحبه من اضطراب ، فلم يلق عليه
أي سؤال ♦

نظر عمر الى صديقه ♦ كان حمدوش يسير في طول الغرفة
وعرضها وقد وضع على كتفيه معطفه الواسع الكالـح ، وفيما هو
يذرع الغرفة على هذا النحو كان يلقي على عمر نظرات غير مألوفة ♦
انه بوجهه العابس ولحيته التي لم تحلق منذ اسبوع ، أشبه
بسجين ♦ ثم أخرج من جيبه قطعة من مشط ، وتوقف عن سيره ،
فجلس على حافة الصندوق الخشبي ، وأخذ يفكك شعره الاشعث
العنيد الخصل ، دون ان يولي صاحبه انتباها ♦

كان الزقاق الصغير المتاخم لمسكن حمدوش صامتا مقفرا
حارا ♦ فاذا بهذا الصمت نفسه يخيم في المسكن ايضا ، بينما
الاحمر يصفف شعره الكث بضربات صغيرة ، مشعث الرأس كالـح
الوجه لا تعبر هيئته عن شيء ♦

قال عمر يسأله :

— كيف الاحوال يا حمدوش ؟ لقد سأل المعلم لماذا لم تأت
الى العمل ؟

فأجاب حمدوش :

— مسألة صعبة ♦ هذه أول مرة ارتكب فيها سرقة ♦♦♦

وضحك ♦ ثم أضاف :

— تعوزني العادة ♦

كان يتكلم كمن يهذي • لم يكن يمزح ، ذلك واضح في
قسماته المحمومة •

— مسدس اوتوماتيكي • هه ، ما رأيك ؟

وكان عمر يرقبه دون ان يفتح فاه بكلمة •

— ولكنني أوشكت ان يُقبض عليّ •

كان واضحا ان الاحمر يقول الحق • وقامت في نفس عمر
رغبة قوية في أن يتحداه • ولكن لا ••• لن يقول له « انه
لا يصدقه » ، لان الحقيقة التي ينتظر ان يسمعها لا يطيق احتمالها •

شيء لم يكن قد فهمه الى ذلك الحين يتكشف الآن لباصرتيه :
هو هذا الهوى الجامح الحي المحرق الذي يسكن نفسَ حمدوش •

ومضى عمر يتكئ بكوعيه على النافذة ، وظل يرقب صديقه
صامتا • ما يزال الاحمر يفكك شعره الحرون • قال وفي شفتيه
ابتسامة ملتبسة :

— هوه ! لا تبحث ! ليس السلاح هنا !

ثم انطلق يضحك ضحكة صغيرة متقطعة •

— في رأيك أنت أن ما فعلته ليس بالفعل المحمود ، أليس
كذلك ؟

ولكن عمر ظل صامتا لا يجيب • قال حمدوش وهو مدير
اليه ظهره :

— قل انه ليس بالفعل المحمود ، اذا كان هذا هو رأيك ...

فحاول عمر أن يجيبه فقال :

— ليس هذا ما أفكر فيه ...

— فيم تفكر اذن ؟

فشعر عمر بمزيد من الارتباك ، انه يجد غناء كبيرا في
استجماع أفكاره • قال :

— لست ألومك على شيء

— ففهم هذا الوجه المكفهر اذن ؟

— ستصبح وحيدا ...

— هذا لن يبدلني كثيرا •

— سينصرف الناس عنك •

فحاول حمدوش ان يضحك ، لكنه لم يستطع • ولم يزد
وجهه الا قسوة •

— أنت تؤثر الوعظ ، لقد علموك ان تحب الكلام يا عمر •

— ما يدفعك الى قول هذا ؟

— اني أعرف ذلك •

قال حمدوش ذلك وهو منحني قليلا ، يشبه ان يكون وضعه
وضع حيوان محاصر •

— القول أجمل من الفعل وأسهل •

ثار عمر وقال :

— أنا ذاهب ♦

فدهش حمدوش ♦ فأدرك عمر عندئذ ما في سلوكهما من غرابة ♦ وتمتم الاحمر يقول بصوت خافت :

— لسوف تشكرني في يوم من الايام ♦

وشزر عمر مرة أخرى ، وقد أثقل جبينه بالعضون والتمع بياض عينيه التماع جوف الصدف ♦

— أشكرك على ماذا ؟

— ستفهم ذلك فيما بعد ♦

ثم عادت تلك الابتسامة المتشنجة نفسها فظهرت في وجهه ♦

أدرك عمر أنه لم يبق له ما يفعله هنا ، فاتجه نحو الباب ، غير أنه ألقى على صديقه نظرة أخيرة ، وهمت أن تخرج من بين شفقيه كلمة مصالحة ، لكنه حبسها ، وانصرف ♦ ولم يلتفت اليه حمدوش أثناء ذلك ♦

فلما عاد الى الكهف قال انه لم يجد الاحمر في بيته ♦ فهتف شول شاتما :

— يا للفاسق الذي لا يعرف غير اللهو والمجون !



كان عمر قد فرغ من طعامه ، فنهض يريد ان يذهب الى الصبيين الآخرين اللذين كانا يلعبان لعبة « الخف » ، بينما كانت الجدران والقبّة ترجع ضحكاتهما وصيحاتهما ، فاذا به في هذه اللحظة يهتز اهتزازا قويا من ضربة هائلة بقبضة يد هوت على ظهره ، وتلتها على الفور ضربة ثانية تقطعت من حولها أنفاسه ، ووقع على الارض من شدة الالم ، فرأى حمدوش يتفرس فيه ، فقال له في أنين :

— أنت ضربتني ؟ ماذا صنعت لك ؟

فاذا بحمدوش يبصق عليه • فصاح عمر :

— ماذا بك ؟

ثم اطلق من صدره آهة توجع ، واسند ظهره الى أحد الانوال ليستطيع أن يتنفس •

فلما رأى حمدوش صامتا ، أعول يقول له :

— ماذا أصابك ؟

فاذا بحمدوش يهجم عليه ، ويقبض على حلقه في وحشية ، وينفخ في وجهه قائلا :

— لارسلك الى القبر ♦

وأخذ يهزه هذا بلغ من القوة ان الفتى احس بعظام عنقه
تقضض بين يديه ♦ وأراد ان ينتزع نفسه من قبضة يده ، فاذا
بالاحمر يهوي بها على وجهه ، في لطفة طاش لها صوابه ، وأخذ
الدم يسيل من فمه ♦

— تريد أن اقول لك ماذا صنعت ؟ الصوف الذي كان عليك
ان تهينه لي ، أين هو ؟ أتسخر مني ؟ لاقتلك ♦

قال حمدوش ذلك وهو يلقي عليه نظرات هاذية ♦

وأحس الصبي بمذاق الدم في فمه حامزا ، فمسحه بيده على
نحو آلي دون وعي ، وألقى يبحث عن شيء عسى ان يعثر به على
الارض ثم نهض وفي قبضتي يديه قضيب من حديد ، رفعه فوق
رأسه ملوحا به ، وصاح يقول لحمدوش :

— اقترب مني ان استطعت يا حمدوش ♦

كان عمر يسمع خفقان قلبه ضربات قوية متباعدة ، وكان
تنفسه قد وقف ، ان بردا كالثلج قد استولى عليه ♦

امتقع وجه حمدوش ♦ وقال :

— أترك هذا ♦

ثم اختنق صوته ♦

حدث عمر نفسه قائلا : « لقد خاف » ، ثم هوى بالقضيب

الحديدي الثقيل بكل ما اوتي من قوة ، لا يعرف أين تقع الضربة •
فاذا بحمدوش يئن أنه طويلة غريبة ، ويتهاوى على الارض
تحيط به مكاب الغزل وتوثقه •

فقفز شول عن نوله ، ووثب على عمر يمسك به من الكتفين ،
وصاح متلعثما :

— يا شقي ، يا شقي ، يا شقي ، يا شقي •••••

لم تسعفه قريحته بكلمة أخرى ، غير أنه كان كلما نطق بحرف
من هذه الحروف لطم الصبي على رأسه لطمة • وقام الاحمر في
هذه اللحظة ، فاذا هو يمزق القميص الذي كان يكسو لحم
عمر ••• يمزقه بحركة واحدة من أعلاه الى أدناه • ثم دق وجهه
بقبضة يده ، وهشم أنفه فأخذ الدم يسيل منه ، وظل يضرب
ويضرب ••• كانت عيناه عيني مجنون • وكان في عينيه من
الظمأ الواضح الى القتل ما جعل الفتى يصيح بالحائكين وهو
يحس بالخطر احساسا عجيبا :

— والآن ، اقتلاني ، اقتلاني •

كان مقتنعا بأن كل احتجاج لا يجدي ، وان كل حركة يحاول
أن يقوم بها دفاعا عن نفسه لن تنفعه • وفكر في عكاشة فتذكر
هذه الفكرة من افكاره : « في بلادنا ، اذا استطاع الانسان ان
يحيا ، وان يبقى حيا ، فقد انتصر » •

وصل ماحي بوغان دون ضجة ، ويده مضمومتان فوق
بطنه • ان الانوال واققة ، كلها •

وان وجوه الحائكين مخيف منظرها • وكان المعلم قد هبط
درجات السلم قبل ان يلاحظ احد من العمال حضوره • فوقف
في وسط المعمل • واخذ ينظر الى العمال واحدا بعد واحد وهو
يقلب ابهامي يديه • فلم يخطر ببال أحد ان يوجه اليه تحية •

وكر حمدوش على عدوه مرة أخرى بغريزته ، فلما رأى ماحي
بوعنان سقطت يده ، وجاء المعلم اليه يملأ المكان كله ، وأخذ
يكيّله بنظرته • وهرع عمر ، مرتعشا دامي الانف والفم ، فاقترّب
منه وتمسك بذراعه • انه لا يسمع شيئا من الكلام الذي يقال ،
كأنه أبله •

سأل ماحي بوعنان وهو يميل برأسه الى جهته :

— هو ؟

فقال له شول :

— نعم •

فأمسك المعلم بأذن الصبي فقرصها ، وهو يتمايل على نفسه
ثم جعل يجره الى ان وصل به الى أول الدرج • لقد هدأت الجلبة
أثناء ذلك ، واستأنفت الانوال حركتها الصماء •

قال ماحي بوعنان لعمر :

— اذهب ••• ولا تترني وجهك في هذا المكان بعد اليوم •

لم يعرف عمر كيف صعد درجات السلم ، ولا كيف اجتاز الشارع
قدما حتى وصل الى عين الماء • لقد لاحظ أثناء خروجه عددا كبيرا

من المستطلعين قد ازدحموا امام الكهف واضعين وجوههم على
مربعات الشباك ، فلما رأوه حاولوا أن يسألوه عما حدث في
الكهف ، ولكنه أفلت منهم ♦

حتى اذا وصل الى عين الماء أخذ يغسل وجهه ♦ وبصق ، فاذا
بسنين تسقطان من فمه ♦ فشر حين رآهما بحنق شديد ، وصعدت
الدموع الى عينيه ♦



ما ان طلع الفجر حتى كانت الجارات تتفرق في الفناء ، أو تستقر عند عتبات الغرف ، أو تضطرب في المطبخ المشترك تغسل الاطباق التي بقيت من الليلة البارحة • ان جلبة آخذة في التزايد تصحب هذه اليقظة ، فالاحاديث تكثر والاطفال يغزون الاروقة عصابات ، ونشاط طافح في الدار الكبيرة من مكان الى مكان ، وسط صمت الساعات الاولى من النهار وهدوئها •

النساء منهمكات في اعمالهن، وقد شمرن اطراف غلائلهن وعلقنهن بالحزام ، وأخذت سراويلهن العريضة تصطفق بين السيقان • انها لمخلوقات عجيبة ، لا تعرف الراحة ، ولا تنقطع عن الصياح لحظة الا لتضرب اولادها ، ثم تذهب وتجيء في طول الدار وعرضها مشغولة مشرثرة •

كانت جهود عمر متركزة كلها على رغبة واحدة : هي ان ينام وقد قاوم في شيء من الغيظ • كان يصغي الى احاديث ، ويتعرف أصواتا ، ويسمع ضججات يسند الى كل منها معنى • وتبعثر منذ تلك اللحظة فلم يمكن ان يغمض له جفن •

ان دار سبيطار لم تتبدل • غير أنه اليوم يعرف قيمة الاشياء التي تجيء وتذهب والاشياء التي تبقى •

لقد نام وهو صبي ، أما الآن فإنه لا يصحو طفلاً بل رجلاً
يقابل قدره وجهاً لوجه ♦

في الليلة البارحة ، حين رآته أمه عيني يدخل البيت وهو على
تلك الحالة التي يرثي لها ، أصابها في أول الأمر رعب ، فإذا هي ،
من قبل أن تعرف ماذا حدث ، تأخذ تولول ناحبة نادبة :

— هاهاي ♦ هاهاي ♦ بني ♦ ماذا صنعوا يا بني ؟

فلما قص عليها عمر الخبر ، قالت تحلف :

— والله لأقلعن عيونهم ♦

وأخذت تتوجع وتتأوه في عنف ♦

— ابق هنا ♦ لسوف أريهم كيف تكون الاساءة الى عيني

وابنها ♦

وظلت عيني تصغي الى كلام ابنها حتى فرغ من حكاية القصة
كلها ، فهرعت عندئذ الى الرواق الذي يطل على الفناء ، فصاحت
تقول لجميع سكان المنزل :

— أنظروا أيها الناس ماذا فعل أعداء الله بابني ♦

* * *

نهض عمر وخرج ، فلم تقل له أمه شيئاً حين رآته يذهب ♦

أراد أن يتجول في الشوارع كما كان يتجول من قبل ♦ كان

يتراءى له حتى ذلك الحين ان كل شيء في الحياة واضح ، وان كل شيء في الحياة بمكانه • غير ان هذا النظام الاعلى قد اضطرب الآن • أهو اضطرب في نفسه ، أم في المدينة ، أم في العالم كله ؟ انه لا يعرف ذلك • كل ما يعرفه هو ان الامور ليست كما كان يظن • كان في صدره شيء ينقبض • انه يسير وهو فيما يشبه الحلم • حركة الشوارع تصل اليه ضعيفة ، ولكنها في الوقت نفسه تطيش بصوابه • انه يسير في حذر كأنما هو يخشى ان تحل كارثة من الكوارث على حين فجأة •

جمهرة المتسولين الغائرة وجوهمهم ، الداوية عيونهم ، ما تزال هي نفسها تملأ المدينة • انهم لا ينتظرون شيئاً من احد • يسرون ثم يقفون ، ولا يبدو عليهم انهم يكثرثون بما يفعلون • وهم يتكدسون في بعض الاماكن تكدس أناس يحيطون بميت ، ويلقون على سكان المدينة نظرات عميقة ساكنة •

تأمل عمر العياء الذي يسمّرهم في الارض • لاحظ القلق الذي يجوف خدودهم ، على أنها جوفاء ، ويسن أعراف أنوفهم • وشيئاً فشيئاً فهم • أين ذهب القوة التي كانت تتدفق في كثير منهم يوم كان حميد سراج يتحدث اليهم في مقر الشارع الواطى ؟ وتأملهم عمر • ماذا حدث اذن ؟ وتذكر المعمل ، والحائكين ، ثم صرف عن ذلك ذهنه • وفكّر مرة أخرى في حميد سراج الذي ما يزال سجيناً في أحد معسكرات الاعتقال ، هناك في الجنوب • وفي هذه اللحظة وقع بصره على حلقة من المتطلعين المبهوتين

•• ان امرأة فارعة القامة نحاسية اللون مستطيلة الوجه كانت جالسة في وسط الرصيف لا تتحرك ، وقد بلغت أسماها الرثة من القذارة ان الناظر اليها يحسبها خارجة من حمام وحل ، وعلى رأسها وكتفيها منديل ملطخ لا يقل سواده عن سواد سائر خرقها • ان نظرتها تثير فضول المارة كأنها صرخة • فالحشد الصغير يحيط بها دون ان ينطق أحد بكلمة •

وقف عمر على أصابع قدميه متطلعا ، فرأى امام المرأة كائنا صغيرا مقمطا برث وسخة راقدًا على الارض • كانت المتسونة واضعة احدى يديها على فمها ، وهي ساكنة لا تتحرك • وكان الرجال والنساء والاطفال ينظرون اليها ، خرسا لا يتكلمون • ثم اهتز رأسها بحركة خفيفة ازاحت منديلها قليلا ، ومالت الى امام ثم قالت بصوت عذب استغربوا جميعا ان يصدر مثله عن هذا التمثال المقدود في خشب :

— الله يحميك يا ابنتي الصغيرة ، لم يحن أجل الموت بعد • وغمرت الرضيع بنظرة حزينة • ثم هزت رأسها ومدت يديها الى الطفلة فتناولتها ، واستغرقت عندئذ في تأمل الوجه الصغير • كان واضحا ان هذه المرأة تجهل ان جمهورا من الناس يحيط بها ويرقب حركاتها ويلتقط كلماتها • ووضعت شفتيها على الشفتين الصغيرتين البريئتين ، ثم أرقدت حملها البارد الاصفر على الارض أمامها حيث كان • وفي هذه اللحظة القت على ما حولها فجأة ، وهي تضغط على خدها باحدى يديها ، نظرات تائهة • وأخذت

عندئذ تتأوه تأوهات قصيرة ولكنها ما لبثت ان صمتت ،
كأنها هي قد غيرت رأيها • وعادت فتناولت يدي الطفل
المنطويتين فربت عليهما في حنان • وظلت على هذه الحال بضع
دقائق لا تفعل غير ذلك • وظل شيء من اليأس يُقرأ في وجهها
خلال لحظة ، غير ان السحابة ما لبثت ان تبددت ، فلم يبق منها
أثر • ودمدمت المرأة تقول :

— ستفهميني يا بنيتي حين تبلغين من العمر ما بلغت •

وظلت تكلم الرضيع المتثلجة مدة طويلة ، في رقة وبلاهة •
لم يستطع عمر ان ينتزع نفسه من هذا المشهد الا في عناء • وردد
يقول دون ان يعرف السبب الذي يدفعه الى ذلك : « فات الاوان •
فات الاوان » •

وما كاد يخطو بضع خطوات حتى دوت في الشارع صرخة
ليس فيها شيء انساني • فأخذ الناس يركضون •



جثم الارق في تلك الليلة على صدره كحيوان مفترس • ثم
يكن كل شيء قد نام بعد : فمن الشارع ما تزال تصاعد ضحكات
وأحاديث ، ومن مسافة بعيدة تترامى الى السمع الحان شبابة
شاكية ، ومن الزقاق الضيق القريب يصل صوت أحد السكارى
وهو يحاول أن يكمل غناء أغنية بطيئة حزينة ، ولكن صوته
الكثيف الربل ما ينفك يعود الى كلمات بعينها فيتغتمها في عناد :

أصبحت وحيدا منفردا

لا تصحبني الا نفسي •

ويتوقف المغني عن الغناء بعد الكلمة الاخيرة ، فيحسب
السامع من طول توقفه أنه قد عدل عن المضي في غنائه • ولكنه
ما يلبث ان يستأنف ترنمه بعد ذلك ، بتلك الكلمات نفسها ••
ان عمر لا يستطيع ان يحصي عدد السنين التي ظل خلالها يسمع
هذا الصوت المخمور في مثل هذه الساعة من الليل • انه محمد
شراق يسكر ويحيي يغني هذا الغناء في كل مساء :

أصبحت وحيدا منفردا

لا تصحبني الا نفسي •

واتسع الصمت • ان كل شيء قد نام الآن • الا هذا الصوت

العنيد • انه يظل يثأثي وفي نفسه أمل حزين في ان يصل من
الاغنية الى ختامها • جلس عمر الى مرقده ، وتأمل السماء من
خلال الباب المفتوح • ان ضياء هذه الليلة يشبه ان يكون ضياء
نهار • ومضى عمر يجلس على الرواق المتاخم للغرفة ، وراح يعد
النجوم الغارقة في بياض كأنه اللبن ، ثم لم يستطع ان ينتزع نفسه
من فتنة هذه الليلة الساطعة كل هذا السطوع •

وحدق بعينين واسعتين مغسولتين ، الى الاكتاف الكثيفة من
المباني المنتصبة على مقربة من البيت ، ولكن نظراته سرعان ما عادت
تصّاعد الى النبع المترقق ، السماء ، حيث تصطفق النجوم ، واذا
هو يقول مخاطبا نفسه : « لم أعد ادري من أنا •• »

انقطع شراق عن الغناء ، فهو يتكلم الآن بصوت رصين خافت •
فكر عمر في عكاشة ، وتساءل أين عساه يكون ، في هذه الساعة ،
ذلك الحائك الذي آثر ان يهجر النول ، وان يحمل عصا المسافر
وجرابه •

وفكر عمر بعد ذلك في حميد سراج • لكأن صوت شعب
بأسره قد سكت ، منذ سُجن حميد سراج في معسكر من
معسكرات الاعتقال • اصبح المرء لا يرى بعد ذلك الا جماهير
خرساء ، خائفة • اصبحت هذه الجماهير على حين فجأة ، تحس
بخطر كانت جاهلة به • وازداد حذر الناس •

شعر عمر برعشة تسري في جسمه بغتة • ان برودة نافذة قد
هبت في الفضاء • فحمل عمر المخدة التي كان متكئا عليها وعاد

الى الغرفة التي تترجع فيها أنفاس أختيه وأمه مطردة هادئة •
واستلقى على مرقده وغفا ، تسهر عليه هذه الليلة الراكنة الجميلة •

حتى اذا صحا في الغد أحس برغبة مفاجئة في أن يمضي الى
صفصف يستحم في النهر الصغير • انه لم يذهب الى هناك منذ
مدة طويلة ، ربما منذ سنتين • فما كان اشد فرحة بالعودة الى
الريف • شهر تشرين الثاني يشعل شموعه في ذروة السماء •
والاراضي الراقدة تهتز في هدوء ورفق ، خفيفة خفيفة ، كأنها
تهم أن تذوب دخانا • النهر يتسع في هذا الموضع ، ويجري
كسولا تحت ظلال أشجار البطم الكبيرة ، بين كث الاشباب
المتوحشة • وفي الفضاء ترين طمأنينة رحيبة تخددها ضجرات
بعيدة تقرع الهواء • ولكن أذن عمر غارقة في الهمهمة الغامضة ،
فما يدرك منها شيئا • لقد رقد على العشب الخضير بعد أن ظل
يخوض في الماء مدة طويلة ، فهو بين الغفو والصحو ، واليزان
تتصايح من حوله في كل مكان ، فصريرها يذوب في الفضاء الرنان
الذي يغمره ، ثم ينسكب في أعضائه ، فيخدر شعوره •

واربدت السماء • وعاد عمر الى الماء • وفجأة اشتد ذلك
الاهتزاز العنيد الذي كان يقتحم الهواء منذ لحظة ، ثم اذا هو
يصبح ضجة تملأ الفضاء • لكأن هذه الضجة تخرج من اعماق
الارض • وما هي الا لحظة حتى بدا أن الافق هو الذي يهتز •
فوقف عمر في الماء وأصاخ بسمعه ، ثم خرج من النهر بعد بضع
ثوان •

فما كاد يخرج حتى رأى سيارة من سيارات النقل عليها جنود تقف في الطريق على مقربة من النهر ، ثم يش منها أحد الجنود ، ويقترب • انه في ريعان شبابه هذا الرجل الطويل ، النحيل قليلا ، الضيق الكتفين • وها هوذا ينظر الى عمر بعينين زرقاوين مبتسمتين • ان في قسما ت وجهه تعبيرا عن صراحة كصرخة الاطفال ما تلبث أن تشير في النفس المودة والمحبة • ومما يزيد ذلك التعبير وضوحا هذا الشعر الاشقر المقصوص حول الرأس كله ، الا خصلة صغيرة متهدلة على الجبين • لاشك ابدا في أنه أجنبي ••• ولكن ليس بينه وبين الاوربيين القاطنين في هذه البلاد الا شبه ضعيف • لم يقل الرجل شيئا ، واكتفى بالتبسم وهو يقدم الى عمر لوحا من الشوكولاته مع راية صغيرة عليها نجوم • غير أن رفاقه الذين ظلوا في السيارة لم ينقطعوا عن الجمجمة والصياح فرحين : « هالو ••• هالو ••• » ، ولا عن التلويح للفتى باشارات تعبر عن الصداقة • وكان عمر يلاحظهم مبهورا ويلاحظ الرجل الواقف أمامه ، ناسيا أنه عار كل العري • تناول لوح الشوكولاته من يد الرجل الاجنبي دون تفكير ، ثم هرع الى الماء وغطس غطسة • وانطلقت على الضفة هتافات ، فجرت السيارة تهدير هدير ا يصم الآذان ، وغابت وراء سحابة من الغبار ، تتبعها سيارة اخرى ، ثم سيارات فسيارات ، متشابهة كلها ، محملة جميعها بجنود يلوحون بأيديهم ، وعندئذ ، خلال البرية ، التي يهدر في كل مكان منها ، ويترجع في مكان منها ،

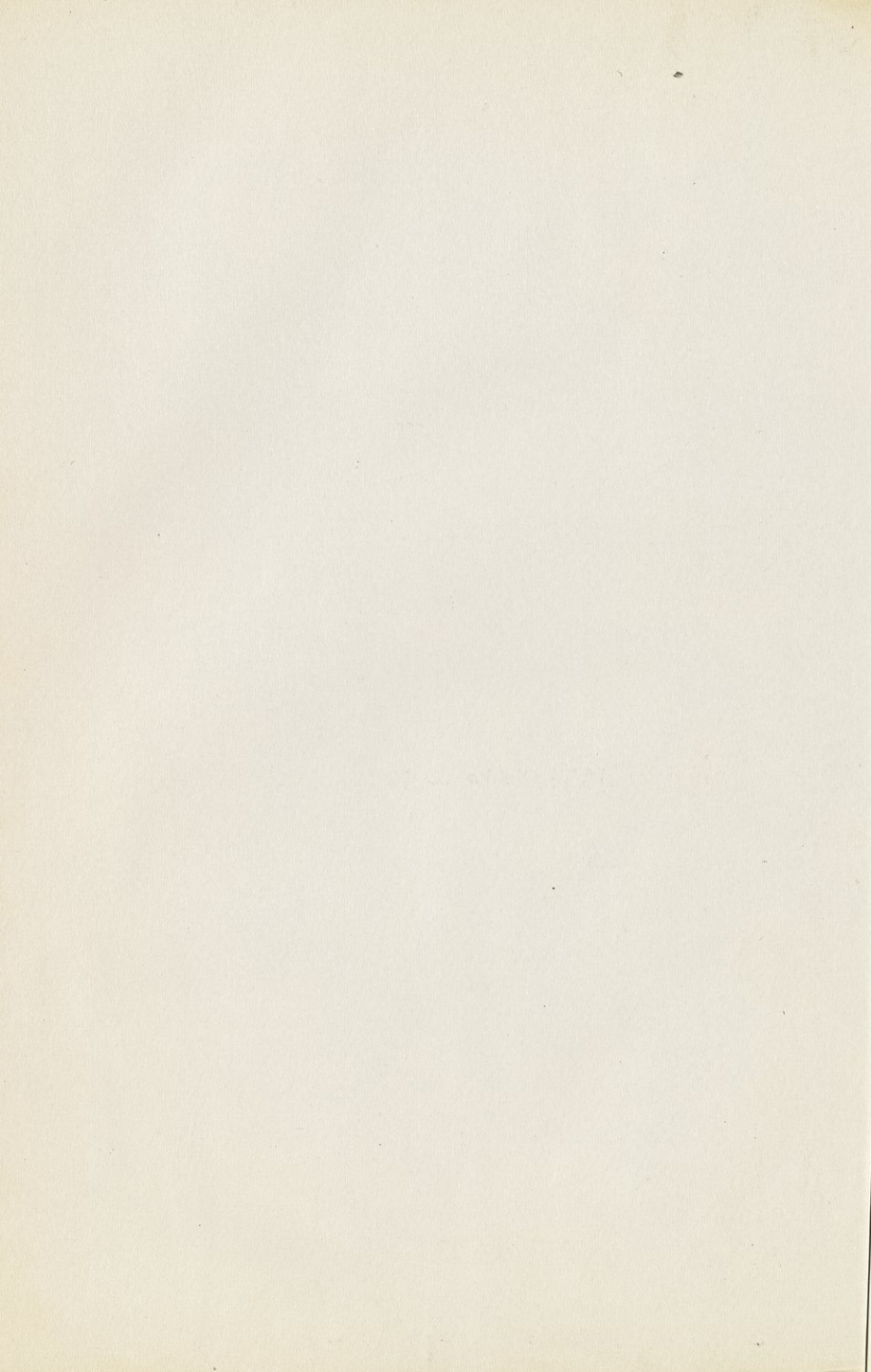
الرعد الذي تحدثه أصوات محركات السيارات ، ارتفعت صرخة
تقول :

— الا ... مر ... يكان ...

فاذا بقلب عمر يشب من صدره في فرح مجنون • ان أملا
مستحيلا يمسك بخنقه فاذا حلقه يتشنج واذا هو يحس أنه يهم
أن يبكي •

وخرج من الماء ، فارتدى ملابسه ، وعاد يسير في الطريق
المؤدي الى المدينة ، جادا مفكرا ، لاشك أن شيئا هائلا قد حدث
في العالم • كان يسير بخطى سريعة ، حتى ليكاد يركض ركضا ،
وقد انشدت قامته بسروال طويل أزرق ، وسترة ضيقة ، وانتصب
فوق جسمه الطويل المهيأ للتخلع بطبيعته من قبل ذلك ، رأس
حاد تتقد فيه عيان صغيرتان سوداوان • أما جبينه المستقيم
المنبسط فكان أشبه بأجرة كثيفة قامت فوق الحاجبين تظللها
كشة من شعر خشن • وكانت أجفانه تصطفق على ايقاع سريع ،
وكانت نظرتة تقفز من شيء الى شيء آخر ، وكان في وجهه تعبير
عن جد يوشك أن يكون قاسيا عنيفا •

* * *



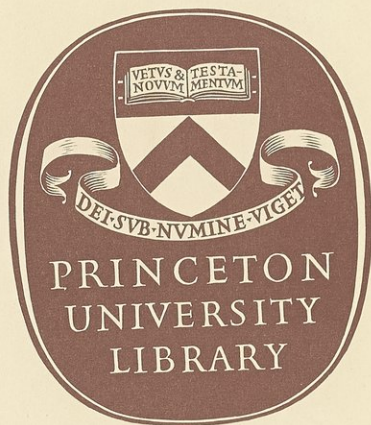
1971/3/10 - 2...

5714

نشر وتوزيع

مكتبة
أطلس
دمشق





Princeton University Library



32101 054331176